

سورة فاطر

مكية في قول الجميع، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز في «فاطر» ثلاثة أوجه: الخفض على النعت، والرفع على إضمار مبتدأ، والنصب على المدح. وحكى سيبويه: الحمد لله أهل الحمد [مثله]، وكذا «جاعل الملائكة»^(١). والفاطر: الخالق. وقد مضى في «يوسف»^(٢) وغيرها. والفطر: الشق عن الشيء؛ يقال: فطرتُه فانفطر. ومنه: فطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر. وتفطر الشيء: تشقق. وسيف فطار، أي: فيه تشقق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كِمعي سلاحي لا أفل ولا فطارا^(٣)

والفطر: الابتداء والاختراع؛ قال ابن عباس: كنت لا أدري ما ﴿فاطر السموات والأرض﴾ حتى أتاني أعرابيَان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأتها. والفطر: حلب الناقة بالسبابة والإبهام^(٤). والمراد بذكر السماوات والأرض

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٥٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول سيبويه في الكتاب ٢/٦٢-٦٣.

(٢) ديوان عنترة ص ٤٣، والمعاني الكبير ٢/١٠٨٢، والصحاح (فطر) والكلام منه. قال ابن قتيبة:

العقيقة: لمعة البرق. كمعي: ضجيعي، يريد أنه إلى جاني، أفل: به فلول، والفطار: الذي لم يصل، فهو منشقق.

(٤) الصحاح (فطر)، وخبر ابن عباس أخرجه أبو عبيد في غريب القرآن ٤/٤٧٣، والطبري ٩/١٧٥، وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/٧١-٧٢، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/٧٨.

العالمُ كُلُّهُ، وَنَبَّهَ بِهَذَا عَلَى أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ.

﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ﴾ لا يجوزُ فيه التنوين؛ لِأَنَّهُ لِمَا مَضَى. ﴿رُسُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، ويقالُ: على إضمارِ فعلٍ؛ لِأَنَّ «فاعلاً» إذا كانَ لِمَا مَضَى لم يعمل^(١) شيئاً، وإعمالُه على أَنه مستقبلٌ حُذِفَ التنوينُ منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك: «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» على الفعلِ الماضي^(٢).

﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا﴾ الرسلُ منهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: «جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةَ» بالرفع^(٣). وقرأ خُلَيْدُ بْنُ نَشِيطٍ: «جَعَلَ الْمَلَكِئِكَةَ»^(٤) وكُلُّهُ ظاهر.

﴿أُولَى أجنحةٍ﴾ نعتٌ، أي: أصحابَ أجنحةٍ. ﴿مَتْنَى وَتَلَّتْ وَرَبَّعٌ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة^(٥)، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرةٌ كذا في وقتٍ واحد، أي: جَعَلَهُمْ رُسُلًا. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السُّدِّيُّ: إلى العبادِ برحمةٍ أو نعمة^(٦).

وفي «صحيح» مسلم^(٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رأى جبريلَ عليه السلام له سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ.

وعن الزُّهْرِيُّ: أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ: «يَا مُحَمَّدُ، لَوْ رَأَيْتَ إِسْرَافِيلَ، إِنَّ

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): فيه، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٥٩، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة: ص ١٢٣، والمحتسب ١٩٨/٢.

(٣) القراءات الشاذة: ص ١٢٣، والمحتسب ١٩٨/٢.

(٤) المحتسب ١٩٨/٢.

(٥) أخرجه الطبري ٣٢٦/١٩.

(٦) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦١. وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المشور ٥/٢٤٤.

(٧) برقم (١٧٤)، وهو عند أحمد (٣٧٨٠)، والبخاري (٣٢٣٢).

له لِأَثْنِي عَشَرَ جَنَاحًا^(١)، منها جَنَاحٌ بِالْمَشْرِقِ، وجَنَاحٌ بِالْمَغْرِبِ، وَإِنَّ الْعَرْشَ لَعَلَى كَاهِلِهِ، وإِنَّهُ فِي الْأَحْيَانِ لِيَتَضَاءَلُ لِعَظْمَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ مِثْلَ الْوَصْعِ - وَالْوَصْعُ: الْعَصْفُورُ الصَّغِيرُ - حَتَّى مَا يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ إِلَّا عَظْمَتُهُ^(٢).

و«أُولُو» اسْمٌ جَمَعَ لـ«ذُو»، كَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ اسْمٌ جَمَعَ لـ«ذَا»، وَنَظِيرُهُمَا فِي الْمَتَمَكِّنَةِ: الْمَخَاضُ وَالْحَلِيفَةُ^(٣). وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي ﴿مَثَقٌ وَكُلْتَّ وَرَبِّعٌ﴾ فِي «النِّسَاءِ» وَأَنَّهُ غَيْرُ مَنْصَرِفٍ^(٤).

﴿بَرِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: فِي خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ، فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمَفْسَّرِينَ؛ ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿بَرِيدٌ فِي الْخَلْقِ﴾ أَي: فِي أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ مَا يَشَاءُ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ: يَعْنِي حُسْنَ الصَّوْتِ^(٥). وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِيهِ فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ^(٦). وَقَالَ الْهَيْثَمُ الْفَارَسِيُّ: رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَنَامِي، فَقَالَ: أَنْتَ الْهَيْثَمُ الَّذِي تُزَيِّنُ الْقُرْآنَ بِصَوْتِكَ، جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا^(٧).

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿بَرِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ الْمَلَاخَةُ فِي الْعَيْنِينَ، وَالْحُسْنَ فِي الْأَنْفِ، وَالْحَلَاوَةُ فِي الْفَمِ^(٨).

(١) فِي النِّسَخِ: لِأَثْنِي عَشَرَ أَلْفَ جَنَاحٍ، وَالْمَثْبُتُ مِنَ الْمَصَادِرِ عَلَى مَا يَأْتِي.

(٢) أَخْرَجَهُ مَطْوَلًا ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي الزُّهْدِ (٢٢١)، وَذَكَرَهُ أَبُو اللَّيْثِ ٨٠/٣، وَالزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ ٢٩٨/٣.

(٣) الْكَشَافُ ٢٩٨/٣. وَالْمَخَاضُ اسْمٌ لِلنُّوقِ الْحَوَامِلِ، وَاحِدَتُهَا خَلِيفَةٌ. النَّهْيَايَةُ (مَخْض).

(٤) ٣٠/٦.

(٥) النَّكْتُ وَالْعِيُونَ ٤٦٢/٤، وَقَوْلُ الزُّهْرِيِّ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعْبِ (١١٥)، وَعِزَّاهُ السِّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَثُورِ ٢٤٤/٥ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ وَابْنِ الْمُنْذَرِ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٦) ٢١/١.

(٧) الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ ٤٢٩/٤.

(٨) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِيٍّ ٩١٧/٣، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعْبِ (٩١٦) مُخْتَصِرًا بِذِكْرِ الْمَلَاخَةِ فِي الْعَيْنِينَ. وَكَذَا وَرَدَ فِي الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ ٤٢٩/٤، وَالْكَشَافِ ٢٩٨/٣.

وقيل: الخَطُّ الحَسَنُ. وقال مهاجر الكلاعي: قال النبي ﷺ: «الخَطُّ الحَسَنُ يَزِيدُ الكَلَامَ وضوحاً»^(١).

وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجه الحسن، والصوت الحَسَنُ، والشعر الحسن^(٢)؛ ذكره القشيري.

النقَّاش: هو الشعرُ الجعد. وقيل: العقلُ والتمييز. وقيل: العلومُ والصناعات^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة.

الزمخشري^(٤): والآية مُطْلَقَةٌ تتناولُ كلَّ زيادةٍ في الخَلْقِ؛ من طولِ قامَةٍ، واعتدالِ صورةٍ، وتَمَامِ في الأَعْضَاءِ، وقوةٍ في البَطْشِ، وَحِصَافَةٍ في العَقْلِ، وَجَزَالَةٍ في الرَأْيِ، وَجِرَافَةٍ في القَلْبِ، وَسَمَاحَةٍ في النَفْسِ، وَذَلَّاقَةٍ في اللِّسَانِ، وَلِبَاقَةٍ في التَكَلُّمِ، وَحُسْنِ تَأْتٍ في مُزَاوَلَةِ الأُمُورِ؛ وما أَشَبَهُ ذلكَ ممَّا لا يَحِيطُ به وَصْفٌ.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وأجاز التَّخْوِيُّونَ في غير القرآن: «فلا مُمْسِكَ له» على لَفْظِ «ما». و«لها» على المعنى. وأجازوا: «وما يُمْسِكُ فلا مُرْسِلَ لها» [على معنى «ما»]. وأجازوا: «ما يَفْتَحُ اللهُ للناس من رحمة» - بالرفع - تكونُ «ما» بمعنى الذي^(٥).

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٦٠/٣، وقال عن مهاجر، ولست أعرف له صحبة. وذكر الخبر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٢٩/٤، والذهبي في الميزان ٣٥٨/٢ وقال: هذا خبر منكر. ووقع في هذه المصادر: «... يزيد الحق وضوحاً».

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢٩٨/٣.

(٣) النكت والعيون ٤٦٢/٤.

(٤) في الكشاف ٢٩٨/٣.

(٥) وقال الزجاج في معاني القرآن ٢٦٢/٤: ولا أعلم أحداً قرأ به. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣٦٠/٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

أي: إنَّ الرسل بُعثوا رحمةً للناس، فلا يَقْدِرُ على إرسالهم غيرُ الله. وقيل: ما يأتيهم به الله من مطرٍ أو رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أن يمسكه، وما يُمسِك من ذلك فلا يقدرُ أحدٌ على أن يرسله.

وقيل: هو الدعاء؛ قاله الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيقٍ وهداية^(١).

قلت: ولفظُ الرحمة يجمعُ ذلك؛ إذ هي منكرةٌ للإشاعة والإبهام، فهي مُتناولةٌ لكلِّ رحمةٍ على البدل، فهو عامٌّ في جميع ما ذكر. وفي «موطأ» مالك^(٢): أَنَّهُ بَلَّغَهُ أَنَّ أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مُطِرْنَا بِنُوءِ الْفَتْحِ، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذِّكْرُ الشُّكْرُ. ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ يجوز في «غير» الرفعُ والنَّصْبُ والخَفْضُ، فالرفعُ من وجهين: أحدهما بمعنى: هل من خالقٍ إلاَّ الله؛ بمعنى ما خالقٌ إلاَّ الله. والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضوع؛ لأنَّ المعنى: هل خالقٌ غيرُ الله، و«من» زائدة. والنصبُ على الاستثناء. والخَفْضُ على اللفظ^(٤).

(١) النكت والعيون ٤/٤٦٢-٤٦٣. وخير ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٤٤.

(٢) ١٩٢/١.

(٣) ٤٢٩/١ و٤٠٣/٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٠. وقرأ بنصب «غير» الفضل بن إبراهيم النحوي كما في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وستأتي القراءة بالرفع والجر.

قال حميد الطويل: قلت للحسن: مَنْ خَلَقَ الشَّرَّ؟ فقال: سبحان الله! هل من خالقٍ غيرِ الله جلَّ وعزَّ خَلَقَ الخَيْرَ والشَّرَّ^(١).

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿هل من خالقٍ غيرِ الله﴾ بالخفض. الباقون بالرفع^(٢).
﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: المطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: النبات. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ من الأفك - بالفتح - وهو الصَّرف؛ يقال: ما أفكك عن كذا؟ أي: ما صرَّفك عنه. وقيل: من الإفك - بالكسر - وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدَّم؛ لأنه قولٌ مصروفٌ عن الصُّدقِ والصُّوابِ، أي: من أين يقعُ لكم التكذيبُ بتوحيد الله. والآيةُ حُجَّةٌ على القَدَريةِ لأنه نفَى خالقاً غيرَ الله، وهم يُثبِتون معه خالقين، على ما تقدَّم في غير موضع^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفارَ قريشٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعزِّي نبيَّه ويسلِّيه ﷺ، وليتأسى بمن قبله في الصَّبْرِ. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ قرأ الحسنُ والأعرجُ ويعقوبُ وابنُ عامرٍ وأبو حيوةَ وابنُ مُحيصينَ وحميدٌ والأعمشُ وحمزةُ ويحيى والكسائيُّ وخلفٌ بفتح التاء على أنه مسمَّى الفاعل^(٤). واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]. الباقون: ﴿تُرْجَعُ﴾ على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا وغلظ للمكذِّبين للرسول بعد إيضاح

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠.

(٢) السبعة ص ٥٣٤، والتيسير ص ١٨٢.

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و ٢٨٥.

(٤) السبعة ص ١٨١، والتيسير ص ٨٠، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩.

الدليل على صحة قوله: إِنَّ الْبَعْثَ وَالشُّوَابَ وَالْعِقَابَ حَقٌّ. ﴿فَلَا تَعْرَنَكُمُ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا: أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] (١).

﴿وَلَا يَغْرَنَكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم: «الغُرور»: الشيطان (٢). و«غُرور»: جمع غَرٌّ، و«غَرٌّ مصدر». ويكون «الغُرور» مصدراً، وهو بعيدٌ عند أبي إسحاق (٣)؛ لأنَّ «غَرَّزته» متعدِّدٌ، والمصدر [من] المتعدِّي إنما هو على فعل؛ نحو: ضربته ضرباً، إلَّا في أشياء يسيرة لا يُقاسُ عليها؛ قالوا: لزمته لزوماً، ونهكه المرض نُهوكة. فأماً معنى الحرفِ فأحسنُ ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير؛ قال: الغرورُ بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنى على الله المغفرة.

وقراءة العامة: ﴿الْغُرُورُ﴾ بفتح الغين؛ وهو الشيطان، أي: لا يَغْرَنَكُم بوساوسه في أنه تعالى (٤) يتجاوزُ عنكم لفضلكم. وقرأ أبو حيوَةَ وأبو السَّمَّالِ العدويُّ ومحمد ابن السَّمِيفَعِ: «الغُرور» برفع الغين (٥)، وهو الباطل، أي: لا يَغْرَنَكُم الباطل. وقال ابن السُّكَيْتِ: والغُرور بالضم: ما اغتُرَّ به من متاع الدنيا (٦). قال الزجاج (٧): ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارٍّ، مثل قاعد وقعود. النحاس: أو جمع غَرٍّ، أو يُشَبَّه بقولهم:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦١. وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٤٥.

(٢) قول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٣٦٧، وأخرجه الطبري ١٩/٣٣١ عن ابن عباس.

(٣) في النسخ: عند غير أبي إسحاق، والتصويب من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦١ (والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه). وكلام أبي إسحاق (وهو الزجاج) في معانيه ٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٤) قوله: تعالى، من (ظ).

(٥) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦١ عن سماك، ووقع في النسخ الخطية: وأبو سماك، بدل: وأبو السمال، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في البحر ٧/٣٠٠ ووقع في المحرر الوجيز ٤/٤٢٩: سماك العبدي. وسلف ١٤/٨١ أن سماك بن حرب وأبا حيوَةَ وابن السميفَعِ قرؤوا: «الغُرور» بالضم في الآية (٣٣) من سورة لقمان.

(٦) إصلاح المنطق ص ٣٦٧، والصحاح (غرر).

(٧) في معاني القرآن ٤/٢٦٣.

نَهَكَهُ الْمَرَضُ نُهوكًا، وَلَزِمَهُ لُزومًا^(١). الزمخشري^(٢): أو مصدرُ «غَرَّه» كاللُزوم والنُّهوك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ①﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فعادوه ولا تُطيعوه. ويدلُّكم على عداوته إخراجُه أباكم من الجنة، وضمانه إضلالكم في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّنَّهُمْ وَلَا تُؤْمِنُنَّهُمْ﴾ الآية [النساء: ١١٩]. وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَأَنْبِتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٦-١٧]. فأخبرنا جلَّ وعزَّ أنَّ الشيطان لنا عدوٌّ مبين، واقتصص علينا قصَّته، وما فعلَ بأبينا آدم ﷺ، وكيف انتدبَ لعداوتنا وغرورنا من قَبْلِ وجودنا وبعده، ونحن على^(٣) ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل ابن عياض يقول: يا كذاب يا مُفْتَرٍ، اتَّقِ الله ولا تَسُبَّ الشيطانَ في العلانية وأنت صديقُه في السِّرِّ. وقال ابن السَّمَاك: يا عَجَباً لمن عصى المُحْسِنَ بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللَّعِينَ بعد معرفته بعداوته! وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوِّداً^(٤).

﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: مُعَادٍ، فيثنى ويُجمع ويؤنَّث^(٥). ويكون بمعنى النَّسَبِ، فيكون موحِّداً بكلِّ حال، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَنْبَتَهُمْ عَدُوًّا لِح﴾ [الشعراء: ٧٧]. وفي المؤنَّث على هذا أيضاً: عدوِّ النحاس^(٦): فأما

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٣٨/٥ .

(٢) في الكشاف ٣/٣٠٠ .

(٣) في (د): مع .

(٤) ١٣/٣ .

(٥) بعدها في (ظ)، ويذكر .

(٦) في إعراب القرآن ٣/٣٦١ ، وما قبله منه .

قول بعض النحويين: إن الواو خفية^(١)، فجاؤوا بالهاء، فخطأ، بل الواو حرف جلد. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ كَفَّتْ «ما» «إِنَّ» عن العمل فوق بعدها الفعل. ﴿حِزْبُهُ﴾ أي: أشياعه. ﴿يَكُونُوا مِنْ أَحْصَابِ السَّعِيرِ﴾ فهذه عداوته.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يكون «الَّذِينَ» بدلاً من «أصحاب» فيكون في موضع خفض، أو يكون بدلاً من «حِزْبَهُ» فيكون في موضع نصب، أو يكون بدلاً من الواو، فيكون في موضع رفع. وقول رابع وهو أحسنها: يكون في موضع رفع بالابتداء، ويكون خبره: «لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»^(٢)، وكأنه سبحانه بين حال موافقته ومخالفته، ويكون الكلام قد تم في قوله: ﴿مِنْ أَحْصَابِ السَّعِيرِ﴾، ثم ابتداء فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في موضع رفع بالابتداء أيضاً، وخبره: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف. قال الكسائي: والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ فالمعنى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ذهب نفسك عليهم حسرات! قال: وهذا كلام عربي ظريف^(٣) لا يعرفه إلا قليل - وذكره الزمخشري عن الزجاج^(٤) - قال النحاس^(٥): والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية؛ لما ذكره من الدلالة

(١) في (ظ): خفيفة، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٢.

(٣) في (خ) و (م): ظريف، والمثبت من باقي النسخ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٢، والكلام منه.

(٤) الكشف ٣/٣٠١، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/٢٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٣/٣٦٢.

على المحذوف، والمعنى: أن الله جلَّ وعزَّ نهى نبيَّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا كَبَبِخٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] قال أهل التفسير: قاتِلٌ. قال نصر بن عليٍّ: سألتُ الأصمعيَّ عن قول النبيِّ ﷺ في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً وأبْخَعُ طاعةً»^(١) ما معنى أبْخَعُ؟ فقال: أنْصَحُ. فقلت له: إنَّ أهلَ التفسيرِ مجاهداً وغيره يقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَّا كَبَبِخٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]: معناه: قاتِلٌ نَفْسَكَ. فقال: هو من ذاك بعينه، كأنه من شدة التُّصْح لهم قاتِلٌ نفسه.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازة: أقمَن زَيْن له سوء عمله فرآه حَسَنًا، فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٢). وقيل: الجوابُ محذوفٌ، المعنى: أقمَن زَيْن له سوء عمله كَمَنْ هُدِي، ويكون يَدُلُّ على هذا المحذوف: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

وقرأ يزيد بن القَعْقَاع: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤).

وفي ﴿أَقْمَنَ زَيْنَ لَمْ يَسُوءْ عَمَلِهِ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنهم اليهود والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قلابة^(٥). ويكون «سوء عَمَلِهِ»: معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أنهم الخوارج؛ رواه عمرو^(٦) بن القاسم. فيكون «سوء عَمَلِهِ»: تحريف التأويل.

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٦)، ووقع في مطبوعه: أنجع، وعليه شرح السندي - كما في حاشية المسند - فقال: أنجع طاعة، أي: الطاعة فيهم أكثر نفعاً لخلوص قلوبهم! والذي في الفائق ٨٢/١، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ٥٨/١: أبخع - بالخاء - كما ذكره المصنف عن النحاس.

(٢) تفسير البغوي ٥٦٥/٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٨٣/٥.

(٤) النشر ٣٥١/٢، والقراءة من العشرة.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٢٤٥/٥، والكلام في النكت والعيون ٤٦٣/٤.

(٦) في النسخ عدا (ظ): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

الثالث: الشيطان؛ قاله الحسن^(١). ويكون «سوءَ عَمَلِهِ»: الإغواء.

الرابع: كفار قريش؛ قاله الكلبي. ويكون «سوءَ عَمَلِهِ»: الشرك. وقال: إنها نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بن هشام. ﴿فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ أي: صواباً؛ قاله الكلبي. وقيل: جميلاً^(٢).

قلت: والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَبُحَّ بِقَسْكَ عَلَيَّ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَمَّا كَبُحَّ بِقَسْكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله في هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾. وهذا ظاهر بين، أي: لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم، فإن الله أضلهم. وهذه الآية ترد على القدرية قولهم على ما تقدم^(٣)، أي: أقم زين له سوء عمله فرأه حسناً تريد أن تهديته، وإنما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ.

وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مخرم: «فَلَا تَذْهَبْ» بضم التاء وكسر الهاء، «نَفْسُكَ» نصباً على المفعول، والمعنيان متقاربان^(٤).

«حَسْرَاتٍ» منصوب مفعول من أجله، أي: فلا تذهب نفسك للحسرات. و«عليهم» صلة «تَذْهَبْ»، كما تقول: هلك عليه حُباً، ومات عليه حزناً. أو هو بيان للمتحسر عليه^(٥). ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته.

(١) أخرجه الطبري ٣٣٤/١٩، والكلام في النكت والعيون ٤٦٣/٤.

(٢) النكت والعيون ٤٦٣/٤.

(٣) ينظر ٢٣٠/١ و ٢٨٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣٦٣/٣ عن أبي جعفر، وهو يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة، وسلفت قريباً.

(٥) في النسخ: وهو بيان للمتحسر عليه، والمثبت من الكشاف ٣٠١/٣، والكلام منه، وكذا وقع في البحر ٣٠١/٧، وروح المعاني ١٧٠/٢٢، قال الألوسي: فيكون ظرفاً مستقراً، ومتعلقه مقدر، كأنه قيل: على من تذهب؟ فقيل: عليهم.

ويجوز أن يكون حالاً، كأنَّ كَلَّهَا صَارَتْ حَسْرَاتٍ لَفَرَطِ التَّحَسُّرِ، كما قال جرير:
 مَشَقَّ الْهَوَاجِرِ لِحَمَهُنَّ مَعَ الشَّرَى حَتَّى ذَهَبْنَ كَلَاكِلًا وَصُدُورًا^(١)
 يريد: رَجَعْنَ كَلَاكِلًا وَصُدُورًا، أي: لَمْ يَبْقَ إِلَّا كَلَالُهَا وَصُدُورُهَا. ومنه قول
 الآخر:

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطَ نَفْسِي حَسْرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لِي سِقَامٌ^(٢)
 أَوْ مَضْدَرًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنْتُهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
 الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنْتُهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ
 واحد، وكذا مَيِّتَةٌ وَمَيِّتَةٌ، هذا قولُ الحُدَّاقِ مِنَ النَّحْوِيِّينَ. وقال محمد بن يزيد: هذا
 قولُ البصريين، ولم يَسْتَشِنْ أَحَدًا، واستدلَّ على ذلك بدلائل قاطعة، وأنشد:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاخَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ
 إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعِيشُ كَثِيبًا كَاسِفًا بِأَلْهِ قَلِيلِ الرَّخَاءِ^(٣)

قال: فهل ترى بين مَيِّتٍ وَمَيِّتٍ فرقاً؟ وأنشد:

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيَسَارُ بَنُو يَسْرِ سُوَاسُ مَكْرَمَةِ أَبْنَاءِ أَيَسَارِ^(٤)

(١) ديوان جرير ٢٢٧/١، والكشاف ٣/٣٠١، والكلام منه، وهو في كتاب سيبويه ١/١٦٢، قوله:
 مَشَقَّ، أي: أذهب لحومهن، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدر فلذلك ذكر معه الصدر،
 وصف رواحل أهزلها دُؤُوبُ السير في الهواجر والليل. شرح الشواهد للشتمري ص ١٣٣.

(٢) البيت لأبي ذؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/٢٣٩، والأصمعيات ص ١٨٨، والحماسة
 البصرية ١/٢٣٨.

(٣) البيتان لعدي بن الرِّعَاءِ النسائي، وسلف البيت الأول ٣/٢٣، والكلام من إعراب القرآن للنحاس
 ٣/٣٦٣. قال النحاس: ويروى: قليل الرجاء.

(٤) تُسب لعبيد بن العرنديس الكلابي كما في الكامل للمبرد ١/١٠٦، والحماسة البصرية ١/١٥٠، =

قال: فقد أجمعوا على أن هينون وهينون^(١) واحدٌ، وكذا مَيْتٌ ومَيْتٌ، وسَيْدٌ وسَيْدٌ.

وقال: ﴿فَسَقَنَهُ﴾ بعد أن قال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وهو من بابِ تَلْوِينِ الخطاب. وقال أبو عبيدة: سبيلُهُ «فَنَسُوقُهُ»^(٢)، لأنه قال: «فَتَثِيرُ سَحَابًا». الزَّمَخْشَرِيُّ^(٣): «فإن قلت: لم جاء «فتثير» على الْمُضَارَعَةِ دونَ ما قَبْلَهُ وما بعده؟ قلت: لتَحْكِي الحَالِ التي تقعُ فيها إثارةُ الرِّيحِ السحابِ، وتَسْتَحْضِرُ تلكَ الصُّورَةَ البديعةَ الدالَّةَ على القدرةِ الربانيةِ، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوعٌ تمييزٍ وخصوصيةٌ بحالٍ تُستغرب، أو تَهْمُ المخاطَبَ، أو غير ذلك؛ كما قال تَأْبَطُ شَرًّا:

بأنِّي قد لقيتُ العُولَ تَهوي بسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحَانِ
فأضربُها بلا دَهْشٍ فخرتُ صريعاً لليدين وللجِرَانِ^(٤)

لأنه قَصَدَ أن يَصوِّرَ لقومه الحالةَ التي تَشْجَعُ فيها بَزْعِمِهِ على ضَرْبِ العُولِ، كأنه يُبْصِرُهُمْ إياها، وَيُظَلِّعُهُمْ على كُنْهها مشاهدةً، للتعجب^(٥) من جرأته على كلِّ هَوْلٍ، وثباته عند كلِّ شِدَّةٍ. وكذلك سَوَّقَ السحابِ إلى البلدِ الميِّتِ وإحياءِ الأرضِ بالمطرِ بعد موتها لَمَّا كانا من الدلائلِ على القدرةِ الباهرةِ قيل: «فَسَقَنَّا» و«أحيينا» معدولاً

= ونسب للعرندس كما في أمالي القالي ٢٣٩/١ ، ومعجم الشعراء ص ١٣٧ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٣/٤ ، وقال المرزباني: وقيل: هو أبو العرندس. قوله: أيسار، قال المرزوقي: جمع يَسْر، وهم الذين يجتمعون في الميسر على الجزور عند الجذب والقحط، فيجبلون القُدَاحَ عليها، ثم يفرقونه في الفقراء وأرباب الحاجة.

(١) في النسخ: هينون ولينون، والمثبت عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) مجاز القرآن ١٥٢/٢، ووقع في (د) و(ز) و(م): فسوقه. قال أبو عبيدة: والعرب قد تضع «فعلنا» في موضع «نفعل».

(٣) في الكشف ٣٠١-٣٠٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ديوان تَأْبَطُ شَرًّا ص ٢٢٤-٢٢٥، والأغاني ١٣٤/٢١. قوله: بسهب، السهب: الفلاة، والصحصحان: ما استوى من الأرض. قوله: وللجِرَانِ، جِرَانِ البعير: مقدّم عنقه من مذبحه إلى منحره. القاموس (سهب) و(صحح) و(جرن).

(٥) في الكشف: للتعجب.

بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أُدخِل في الاختصاص وأدُل عليه.

وقراءة العامة: ﴿الرَّيْحَ﴾. وقرأ ابن مُحَيِّصٍ وابنُ كثير والأعمشُ ويحيى وحمزة والكسائي: ﴿الرَّيْحَ﴾ توحيداً^(١). وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى^(٢).

﴿كَذَلِكَ النَّشُورُ﴾ أي: كذلك تحيُّون بعد ما مِتُّم، مِن نَّشَرَ الإنسانَ نشوراً. فالكاف في محلِّ الرفع، أي: مثلُ إحياءِ المواتِ نَشْرُ الأمواتِ. وعن أبي رَزِينِ العُقَيْلِيِّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي الله المواتي، وما آيةُ ذلك في خَلْقِهِ؟ قال: «أما مرَّرتَ بوادي أهلكَ مُمَجِّلاً، ثم مرَّرتَ به يَهْتَرُ خَضِراً؟» قلتُ: نعم يا رسولَ الله. قال: «فكذلك يُحيي الله المواتي، وتلك آيَةُ في خَلْقِهِ»^(٣) وقد ذكرنا هذا الخبر في «الأعراف» وغيرها^(٤).

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ التقديرُ عندَ الفراء: مَنْ كان يريد عِلْمَ العِزَّةِ. وكذا قال غيره من أهل العلم. أي: مَنْ كان يريدُ عِلْمَ العِزَّةِ التي لا ذِلَّةَ معها؛ لأنَّ العِزَّةَ إذا كانت تودِّي إلى ذِلَّةٍ فإنَّما هي تَعَرُّضٌ للذِلَّةِ، والعِزَّةُ التي لا ذِلَّةَ معها لله عزَّ وجلَّ. ﴿جَمِيعاً﴾ منصوبٌ على الحال. وقدَّ الزَّجَّاجُ معناه: مَنْ كان يريد بعبادته الله عزَّ وجلَّ العِزَّةَ - والعِزَّةُ له سبحانه - فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعزِّه في الآخرة والدينا^(٥).

(١) السبعة ص ١٧٢-١٧٣، والتيسير ص ٧٨ عن ابن كثير وحمزة والكسائي.

(٢) ٢/٤٩٨-٥٠٢ و ٩/٢٥٣-٢٥٥.

(٣) الكشاف ٣/٣٠٢.

(٤) ١/٢٩٦ و ٩/٢٥٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٤، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/٣٦٧، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن له ٤/٢٦٤.

قلت: وهذا أحسن، وروي مرفوعاً على ما يأتي.

﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ظاهرُ هذا إيثارُ السَّامِعِينَ من عزَّته، وتعريفُهم أن ما وجب له من ذلك لا مَطْمَع فيه لغيره، فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به سبحانه، وبما وجب له من ذلك، وهو المفهوم من قوله الحق في سورة يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ [الآية: ٦٥].

ويحتمل أن يريد سبحانه أن يُنبه ذوي الأقدارِ والهمم من أين تُنال العزَّة، ومن أين تُستحق، فتكون الألف واللام للاستغراق، وهو المفهوم من آيات هذه السورة. فَمَنْ طلب العزَّة من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذلٍّ وسكونٍ وخضوع، وجَدَّها عنده - إن شاء الله - غير ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه؛ قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١). وَمَنْ طَلَبَهَا من غيره وكله^(٢) إلى مَنْ طَلَبَهَا عنده. وقد ذَكَرَ تعالى قوماً طلبوا العزَّة عند مَنْ سِوَاهُ فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فأنبأك^(٣) صريحاً لا إشكال فيه أن العزَّة له يُعزُّ بها مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ. وقال ﷺ مفسراً لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: «مَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيُطِيعِ الْعَزِيزَ»^(٤). وهذا معنى قول الزجاج، ولقد أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرِّقَابُ تَوَاضَعًا مَنَّا إِلَيْكَ فَعَزَّهَا فِي ذَلِّهَا^(٥)

فَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ لِيُنَالَ الْفَوْزَ الْأَكْبَرَ، وَيَدْخُلَ دَارَ الْعِزَّةِ - وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ - فَلْيَقْصِدْ بِالْعِزَّةِ^(٦) اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَالْاعْتِزَّازَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ اعْتَزَّ بِالْعَبِيدِ أَذَلَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ اعْتَزَّ بِاللَّهِ

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٠٦)، ومسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة ؓ.

(٢) في (ط): وكل.

(٣) في (ط): فأبان.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/٨٠ و٨/١٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/١٢.

(٥) قائله أبو إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/٣٢٥، وسلف ١١/١٢٩.

(٦) في (خ) و(ط): بالذلة.

أَعَزَّهُ اللهُ.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه مسألان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وتمّ الكلام. ثم تبتدئ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ على معنى: يرفعه الله، أو يرفع صاحبه. ويجوز أن يكون المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب^(١)؛ فيكون الكلام متصلاً على ما يأتي بيانه.

والصعود: هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضاً. ولا يتصوّر ذلك في الكلام لأنّه عَرَضٌ، لكن ضُرب صعوده مثلاً لقبوله؛ لأنّ موضع الثواب فوق، وموضع العذاب أسفل^(٢).

وقال الزّجاج: يقال: ارتفع الأمر إلى القاضي، أي: علّمه، فهو بمعنى العلم^(٣). وخصّ الكلام الطيب^(٤) بالذكر لبيان الثواب عليه.

وقوله: «إليه» أي: إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى سمائه والمحل^(٥) الذي لا يجري فيه لأحدٍ غيره حُكْمٌ. وقيل: أي: يُحمل الكتاب الذي كُتب فيه طاعات العبد إلى السماء.

و«الكلم الطيب» هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة. وقيل: هو التحميد والتمجيد، وذكر الله ونحوه. وأنشدوا:

لا تَرُضَ من رجلٍ حلاوة قولِهِ
حتى يُزَيِّنَ ما يقولُ فعَالُ
فإذا وَرَّنتَ فعَالَهُ بِمَقَالِهِ
فتوازنا فإخاء ذاك جَمالُ^(٦)

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٨٤٨/٢، والوقف عند ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وقف حسن، كما ذكر أبو بكر الأنباري.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٩٣/٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٥٠٢/٣ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٤) في (ظ): الكلم الطيب، وفي (م): الكلام والطيب.

(٥) في الوسيط للواحدي ٥٠٢/٣ (والكلام منه): وهو المحل، بدل: والمحل.

(٦) ذكرهما ابن عساکر في تاريخ دمشق ١٦٢/٨ عن إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي. قوله: فعَالُ، كسحاب: هو اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

وقال ابنُ المُقَفِّع: قولُ بلا عملٍ، كَثْرِيْدِ بلا دَسَمٍ، وَسَحَابٍ بلا مَطَرٍ، وَقَوْسٍ بلا وَتْرٍ^(١). وفيه قيل:

لا يكوْنُ المَقَالُ إِلاَّ بِفَعْلٍ كَلُّ قَوْلٍ بِلا فِعَالٍ هَبَاءٌ
 إِنَّ قَوْلًا بِلا فِعَالٍ جَمِيْلٍ وَنِكَاحًا بِلا وَلِيٍّ سَوَاءٌ
 وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ: «يُصْعَدُ» بِضَمِّ الْيَاءِ^(٢). وَقَرَأَ جَمَهُورُ النَّاسِ: «الْكَلِمُ» جَمْعُ كَلِمَةٍ.
 وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «الْكَلَامُ»^(٣).

قلت: فالكلامُ على هذا قد يُطْلَقُ بمعنى الكَلِمِ وبالعكس؛ وعليه يخرج قولُ أبي القاسم: أقسامُ الكلامِ ثلاثة^(٤)؛ فَوَضَعَ الكَلَامَ مَوْضِعَ الكَلِمِ، واللَّه أعلم.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكَلِمَ الطيب^(٥). وفي الحديث «لا يَقْبَلُ اللهُ قَوْلًا إِلاَّ بِعَمَلٍ، ولا يَقْبَلُ قَوْلًا وَعَمَلًا إِلاَّ بِنِيَّةٍ، ولا يَقْبَلُ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً إِلاَّ بِإِصَابَةِ السَّنَةِ»^(٦). قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ الله وقال كلاماً طيباً وأدَّى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله، وإذا قال ولم يؤدِّ فرائضه؛ رُدَّ قوله على عمله. قال ابن عطية^(٧): وهذا قولٌ يردهُ مُعْتَقِدُ أَهْلِ السَّنَةِ،

(١) الكشاف ٣/٣٠٢.

(٢) الكشاف ٣/٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/٤٣١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٤٣١، وقراءة: «الكلام» في القراءات الشاذة ص ١٢٣.

(٤) الجمل في النحو لأبي القاسم الزَّجَّاجي ص ١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/٣٤٠.

(٦) الكشاف ٣/٣٠٢، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩٢) من حديث أنس ؓ، وفي إسناده أبان بن أبي عياش وهو متروك. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/١٥٠ من حديث ابن مسعود ؓ، وفي إسناده أحمد بن الحسن المصري قال ابن حبان: كذاب. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/٢٨٠، وابن عدي في الكامل ٣/٩١٤ من حديث أبي هريرة ؓ، وفي إسناده أبو يحيى زكريا بن يحيى الوَّاقَر، قال ابن عدي: يضع الحديث، كذبه صالح جزرة. وينظر أيضاً الكامل لابن عدي ٣/١٠٧١، والميزان ١/٦٣٣ و ٢/٧٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص ١٣٨-١٣٩.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/٤٣١، وما قبله منه، وخبر ابن عباس أخرجه بنحوه الطبري ١٩/٣٣٩.

ولا يصح عن ابن عباس. والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له مُتَقَبَّلٌ منه، وله حسناته وعليه سيئاته، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضاً فإن الكلام^(١) الطيب عمل صالح. وإنما يستقيم قول من يقول: إنَّ العمل هو الرفع للكلم، بأن يُتَأَوَّلَ أنه يزيد^(٢) في رَفْعِهِ وحُسْنِ مَوْقِعِهِ إذا تعاضد معه. كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك؛ إذا تخلل أعماله كَلِمٌ طَيِّبٌ وذَكَرُ اللهُ تعالى كانت الأعمال أشرف، فيكون قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ موعظة وتذكرة وحضاً على الأعمال. وأمّا الأقوال التي هي أعمال في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولة.

قال ابن العربي^(٣): إنَّ كلامَ المرءِ بِذِكْرِ اللهِ إنَّ لم يقترن به عملٌ صالح لم يَنْفَعِ، لأنَّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُ فِعْلُهُ فهو وبالٌ عليه. وتحقيقُ هذا: أنَّ العملَ إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مُرْتَبِطاً به، فإنه لا قبول له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه [ولا مرتباً به] فإنَّ كَلِمَةَ الطيبِ يُكْتَبُ له. وعمله السيئ يُكْتَبُ عليه، وتقع الموازنة بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران.

قلت: ما قاله ابن العربي تحقيق. والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيب. وقد جاء في الآثار: «أنَّ العبدَ إذا قال: لا إله إلا الله بنية صادقة، نظرت الملائكة إلى عمله، فإن كان العملُ موافقاً لقوله صعداً^(٤) جميعاً، وإن كان عمله مخالفاً وقف قوله حتى يتوب من عمله»^(٥). فعلى هذا: العملُ الصالح يرفع الكلم

(١) في (ظ) والمحرر الوجيز: الكلم.

(٢) في المحرر الوجيز: يزيد.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٥٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ): فإن كان العمل صالحاً صعداً.

(٥) أخرجه بنحوه الثعلبي وابن مردويه عن أبي هريرة رَفَعَهُ مرفوعاً، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٣٨، وذكر نحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/٥٠٢ عن الحسن قوله، وهو الأشبه.

الطَّيِّبِ إِلَى اللَّهِ، وَالْكِنَايَةُ فِي «يَرْفَعُهُ» تَرْجَعُ إِلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَهْرَ بْنِ حَوْشَبٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكَ^(١).

وَعَلَى أَنَّ «الْكَلِمِ الطَّيِّبِ» هُوَ التَّوْحِيدُ، فَهُوَ الرَّافِعُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، أَي: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، فَالْكِنَايَةُ تَعُودُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَرُويَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ شَهْرَ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: «الْكَلِمِ الطَّيِّبِ» الْقُرْآنَ، «وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ» الْقُرْآنَ^(٢).

وَقِيلَ: تَعُودُ عَلَى اللَّهِ جَلًّا وَعِزًّا، أَي: أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَرْفَعُهُ اللَّهُ عَلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ تَحْقِيقُ الْكَلِمِ، وَالْعَامِلُ أَكْثَرُ تَعْبًا^(٣) مِنَ الْقَائِلِ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّافِعُ الْخَافِضُ. وَالثَّانِي وَالْأَوَّلُ مَجَازٌ، وَلَكِنَّهُ سَائِعٌ جَائِزٌ.

قَالَ النَّحَّاسُ^(٤): الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَاهَا وَأَصْحُهَا لَعَلُّو مَنْ قَالَ بِهِ، وَأَنَّهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَوْلَى؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى رَفْعِ الْعَمَلِ، وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ اللَّهُ، أَوْ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ^(٥) الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، لَكَانَ الْاِخْتِيَارُ نَصَبَ الْعَمَلِ. وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا قَرَأَهُ مَنْصُوبًا إِلَّا شَيْثًا رُويَ عَنْ عَيْسَى بْنِ عِمْرَانَ أَنَّهُ قَالَ: قَرَأَهُ أَنَسُ: «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ اللَّهُ»^(٦).

وَقِيلَ: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ الْعِزَّةَ وَعَلِمَ أَنَّهَا تُطَلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ.

الثانية: ذَكَرُوا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْكَلْبَ يَقَطَعُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِلَيْهِ

(١) تفسير الطبري ١٩/٣٣٩-٣٤٠، ومعاني القرآن للنحاس ٥/٤٤١.

(٢) ذكر هذا القول عن شهر بن حوشب النحاس في معاني القرآن ٥/٤٤٢.

(٣) في (ظ): نفعاً.

(٤) في معاني القرآن ٥/٤٤٢.

(٥) في النسخ: يرفع، والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٣.

يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١﴾. وهذا استدلالٌ بعموم، على مذهب السلف في القول بالعموم. وقد دخل [هذا] في الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك، من مثل ما انعقدت به من قرآنٍ أو سنَّةٍ أو إجماعٍ^(١). وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود» فقلت: ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: «إنَّ الأسودَ شيطانٌ» خرَّجه مسلم^(٢). وقد جاء ما يُعارضُ هذا، وهو ما خرَّجه البخاريُّ عن ابن أخي ابن شهابٍ أنه سأل عمَّه عن الصلاة: يقطعها شيء؟ فقال: لا يقطعها شيء؛ أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم فيصلي من الليل، وإنِّي لمعتريضةً بينه وبين القبلة على فراشِ أهله^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذكر الطبريُّ في كتاب «آداب النفوس»: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا سفيان، عن ليث بن أبي سليم، عن شهر ابن حوشب الأشعري في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ قال: هم أصحابُ الرياء^(٤). وهو قولُ ابن عباس ومجاهد وقتادة^(٥).

وقال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبي ﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٥٩٤، وما سلف بين حاصرتين منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق (٢٣٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/٤٥٩.

(٢) في صحيحه (٥١٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٢٣)، وهو من حديث أبي ذر ر. والقائل: فقلت، هو عبد الله بن الصامت الرواي عن أبي ذر ر.

(٣) صحيح البخاري (٥١٥)، وبنحوه عند أحمد (٢٤٠٨٨)، ومسلم (٥١٢).

(٤) وأخرجه الطبري أيضاً بهذا الإسناد في التفسير ١٩/٣٤١، وسلف الكلام على كتابه آداب النفوس ٣٥/١.

(٥) أخرجه عن مجاهد ابن المبارك في الزهد (٦١- زوائد نعيم)، والبيهقي في الشعب (٦٨٤٥)، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

الكلبي: يعني الذين يعملون السيئات في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك^(١)، فتكون «السيئات» مفعولة^(٢). ويقال: بارَ يَبُورُ: إذا هَلَكَ وبطل. وبارث السوق، أي: كَسَدَتْ، ومنه: نعوذُ بالله من بَوَارِ الأيِّم. وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] أي: هَلَكَى. والمَكْر: ما عُمِل على سبيل احتيالٍ وخديعة. وقد مضى في «سبأ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال سعيدٌ عن قتادة: يعني آدم عليه السلام، والتقديرُ على هذا: خلقَ أصلكم من تراب. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال: أي: التي أخرجها من ظهورِ آبائكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قال: أي: زوجَ بعضكم بعضاً^(٤). فالذكرُ زوجُ الأنثى لتمامِ البقاء في الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتِها. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: جعلكم أزواجاً، فيتزوجُ الذكرُ بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حملٌ ولا وضعٌ إلا والله عالمٌ به، فلا يخرجُ شيءٌ عن تدبيره.

﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ سَمَاهُ معمرًا بما هو صائرٌ إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ﴾ إلا كُتِبَ عمره، كم هو سنة، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعة، ثم يُكْتَبُ في كتابٍ آخر: نقص من عمره يومٌ، نقص شهرٌ، نقص سنة، حتى يستوفيَ أجله^(٥). وقاله سعيد بن جبير أيضاً؛

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٥٦٧/٣.

(٢) يعني على قول الكلبي ومقاتل، حيث ضُمّن «يمكرون» معنى يكسبون، وعلى قول أبي العالية ينتصب «السيئات» على نعتٍ مصدرٍ محذوف، أي: المكورات السيئات، وهي: إثباته أو قتله أو إخراجه. ينظر البحر ٣٠٤/٧، والدر المصون ٢١٨/٩.

(٣) ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٥، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/٣٤٢.

(٥) بنحوه في تفسير الطبري ١٩/٣٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٥، ومعاني القرآن له ٥/٤٤٤.

قال: فما مَضَى من أَجَلِهِ فهو النقصانُ، وما يُسْتَقْبَلُ فهو الذي يُعَمَّرُهُ^(١)، فالهاءُ على هذا للمعمر.

وعن سعيد أيضاً: يكتبُ عمره كذا وكذا سنةً، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يومٌ، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره. وعن قتادة: المعمرُ مَنْ بلغ ستين سنةً، والمُنْقُوصُ من عمره مَنْ يَمُوتُ قبل ستين سنةً^(٢).

ومذهبُ الفراءِ^(٣) في معنى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكونُ من عمره ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ بمعنى معمرٍ آخرَ، أي: ولا يُنْقَصُ الآخرُ من عمره ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ فالكنيةُ في «عمره» تُرْجَعُ إلى آخرِ غيرِ الأوَّلِ، وكُنِيَ عنه بالهاءِ كأنه الأوَّلُ، ومثله قولك: عندي درهمٌ ونصفه، أي: نصفُ آخرَ.

وقيل: إنَّ الله كتبَ عمرَ الإنسانِ مئةَ سنةٍ إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو في كتاب^(٤). وهذا مثلُ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَجِمَهُ»^(٥). أي: إنَّه يُكْتَبُ في اللُّوحِ المحفوظ: عمرُ فلانٍ كذا سنةً، فَإِنْ وَصَلَ رَجِمَهُ زِيدَ في عمره كذا سنةً. فبيِّن ذلك في موضعِ آخرَ من اللُّوحِ المحفوظ، أَنَّهُ سَيَصِلُ رَجِمَهُ. فَمَنْ اطَّلَعَ على الأوَّلِ دونَ الثاني ظَنَّ أَنَّهُ زيادةٌ أو نقصان. وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِئُ﴾ [الرعد: ٣٩]. والكنيةُ على هذا ترجعُ إلى العمر.

وقيل: المعنى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: هَرِمَ ﴿وَلَا يُنْقَصُ﴾ آخرُ [مِنْ

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٤٥/٥ .

(٢) الكشاف ٣/٣٠٣، وأخرج الخبرين ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/٣٦٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤٤٦/٥ .

(٥) أخرجه أحمد (١٣٥٨٥)، والبخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ؓ، وسلف ١٠/٢٠٢ .

عُمْرِيَّة] من عمرِ الهَرَمِ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: بقضاء من الله جلَّ وعزَّ. رُوي معناه عن الضحَّاك واختاره النحَّاس، قال: وهو أشبهها بظاهر التنزيل^(١). ورُوي نحوه عن ابن عباس^(٢). فالهاء على هذا يجوزُ أن تكون للمعمَّر، ويجوز أن تكون لغير المعمَّر.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابة الأعمال والآجال غيرُ مُتَعَدِّرٍ عليه. وقراءة العامة: ﴿يُنْقَضُ﴾ بضمِّ الياء وفتح القاف. وقرأت فرقة منهم يعقوب: ﴿يُنْقَضُ﴾ بفتح الياء وضمِّ القاف^(٣)، أي: لا يُنْقَضُ من عمره شيءٌ. يقال: نَقَصَ الشيءُ بنفسه ونَقَصَهُ غيره، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعدِّدٌ ولازمٌ.

وقرأ الأعرجُ والزُّهريُّ: «مِنْ عُمْرِهِ» بتخفيف الميم^(٤). وضمَّها الباقون. وهما لغتان مثل: السُّحِقُ والسُّحُوق. و«يَسِيرٌ» أي: إحصاءٌ طويلُ الأعمارِ وقصيرها لا يتعدَّرُ عليه شيءٌ منها ولا يَعْرُزُ. والفعلُ منه: يَسُرُّ. ولو سَمَّيتَ به إنساناً انصَرَفَ؛ لأنه فَعِيلٌ^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: «فُرَاتٌ» حُلْوٌ، و«أُجَاجٌ» مرٌّ. وقرأ طلحة: «هذا مِلْحٌ أُجَاجٌ» بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف. وأمَّا المالحُ فهو الذي يُجعلُ فيه الملح^(٦).

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٤٣/٢، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول الضحَّاك أخرجه الطبري ٣٤٣/١٩.

(٢) أخرجه الطبري ٣٤٣/١٩.

(٣) النشر ٣٥٢/٢.

(٤) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ٥٣٤ رواية عن أبي عمرو، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣٦٦/٣.

(٦) المصدر السابق.

وقرأ عيسى وابنُ أبي إسحاق: «سَيْغُ شَرَابِهِ» مثل: سَيْدٌ وَمَيْتٌ^(١). ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لا اختلاف في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في «النحل» الكلام فيه^(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ مذهبُ أبي إسحاق أنَّ الحليَّةَ إنما تستخرجُ من الملح، فقيل: منهما؛ لأنَّهما مُختلطان. وقال غيره: إنما تُستخرجُ الأصدافُ التي فيها الحليَّةُ - من الدرِّ وغيره - من المواضع التي فيها العذبُ والمِلْحُ نحو العيون^(٣)، فهو مأخوذٌ منهما^(٤)؛ لأنَّ في البحر عيوناً عذبةً، وبينهما يخرج اللؤلؤُ عند التَّمَارُجِ. وقيل: من مطر السماء.

وقال محمد بنُ يزيد قولاً رابعاً، قال: إنما تُستخرجُ الحليَّةُ من المِلْحِ خاصةً؛ النحاس^(٥): وهذا أحسنُّها، وليس هذا عنده لأنَّهما مُختلطان، ولكنَّ جُمعاً ثم أخبر عن أحدهما كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] وكما تقول: لو رأيتَ الحسنَ والحجَّاجَ لرأيتَ خيراً وشرّاً. وكما تقول: لو رأيتَ الأصمعيَّ وسيبويه لملاَّت يدك لغةً ونحواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلامٌ فصيحٌ كثير، فكذا: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأوَّلِ وانفردَ المِلْحُ بالثاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أنَّ لباسَ كلِّ شيءٍ بحسبه؛ فالخاتمُ يُجعل في الإصبع، والسَّوارُ في الذراع، والقِلَادَةُ في العنق، والحَلْخَالُ في الرَّجُلِ.

(١) القراءات الشاذة ص ٣٣٤، والمحذر الوجيز ٤/٤٣٣ عن عيسى. وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغُ» مخففاً من المشدَّد، وكذا ضبطت في (ز)، وهي في المحتسب ٢/١٩٨، والبحر ٧/٣٠٥.

(٢) ٢٩٥/١٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٦، وقول أبي إسحاق الزجاج في معاني القرآن ٤/٢٦٦.

(٤) في (ظ): منها، وليست في (د). والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٤/٤٦٧، والكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/٣٦٦، وما قبله منه.

وفي البخاري والنسائي عن ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: افتراش الحرير كلبسيه؟ قال: نعم^(١). وفي الصحاح عن أنس: فقمْتُ على حَصِيرٍ لنا قد اسودَّ من طول ما لبس. الحديث^(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَرَىٰ أَلْفَاكٍ فِيهِ مَوَآخِرَ﴾ قال النحاس^(٣): أي: ماء الملح خاصة، ولولا ذلك لقال: فيهما. وقد مَحَرَّت السفينة تَمَحَّر: إذا شَقَّت الماء. وقد مضى هذا في «النحل»^(٤).

﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال مجاهد: التجارة في الفُلْكِ إلى البلدان البعيدة في مدَّة قريبة^(٥)، كما تقدَّم في «البقرة»^(٦). وقيل: ما يُستخرج من جليته ويصاُد من جيتانه. ﴿وَمَلَّكُم تَشْكُورًا﴾ على ما آتاكم من فضله. وقيل: على ما أنجاكم من هوله.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»^(٧) وغيرها. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تقدَّم في «لقمان»

(١) ذكره البخاري تعليقاً في: باب افتراش الحرير، فقال: وقال عبيدة: هو كلبسيه. ووصله الحارث بن أبي أسامة من طريق محمد بن سيرين بلفظ المصنف، كما في الفتح ٩٢/١٠، ولم يخرج النسائي، ولكن أخرجه من طريقه ابن عبد البر في التمهيد ٢٦٥/١.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠)، وصحيح مسلم (٦٥٨)، وهو عند أحمد (١٢٣٤٠).

(٣) في إعراب القرآن ٣/٣٦٧.

(٤) ٣٠٢/١٢.

(٥) ذكره مختصراً الماوردي في النكت والعيون ٤٦٧/٤.

(٦) ٤٩٧/٢.

(٧) ٨٥/٥ - ٨٧.

بيانه^(١). ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: هذا الذي مِنْ صُنْعِهِ مَا تَقَرَّرَ هُوَ الخالق المدبّر، والقادرُ المقتدرُ، فهو الذي يُعْبَدُ. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنامَ ﴿مَا يَلِكُوتُ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يقدرُونَ عليه ولا على خَلْقِهِ. والقِطْمِيرُ: القِشْرَةُ الرقيقةُ البيضاءُ التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثرُ المفسرين^(٢). وقال ابن عباس: هو شَقُّ النَّوَةِ^(٣)، وهو اختيارُ المبرّد، وقاله قتادة. وعن قتادة أيضاً: القِطْمِيرُ: القَمْعُ الذي على رأس النواة^(٤). الجوهرِي^(٥): ويقال: هي النكتةُ البيضاءُ التي في ظَهْرِ النَّوَةِ، تَنْبُتُ منها النخلة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ أي: إن تَسْتَغِيثُوا بِهِمْ فِي النَّوَابِ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ؛ لَأَنَّهَا جَمَادَاتٌ لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس كلُّ سامعٍ ناطقاً. وقال قتادة: المعنى: لو سَمِعُوا لم يَنْفَعُوكم^(٦). وقيل: أي: لو جَعَلْنَا لَهُمْ عَقُولاً وَحَيَاةً فَسَمِعُوا دَعَاءَكُمْ لَكَانُوا أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، وَلَمَّا اسْتَجَابُوا لَكُمْ عَلَى الْكُفْرِ.

(١) عند تفسير الآية (٢٩) منها.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقاتادة وغيرهم.

(٣) لم نقف عليه، وقد روي هذا القول عن ابن عباس في تفسير الفتييل، كما في معاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥، والدر المنثور ١٧١/٢، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، وروي عنه في معنى القِطْمِيرِ أَنَّهُ القِشْرُ - وفي لفظ: الجلد - الذي يكون على ظهر النواة. تفسير الطبري ٣٤٩/١٩، ومعاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥، والدر المنثور ١٧١/٢ و ٢٤٨/٥.

(٤) أخرجه الطبري ٣٥٠/١٩ من طريق جويبر عن بعض أصحابه، وأخرج عن قتادة أنه قال: القِطْمِيرُ: القِشْرَةُ التي على رأس النواة.

(٥) في الصحاح (قطمر).

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٣٥١/١٩.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ أي: يجحدون أنكم عبدتموهم، وتبرؤون منكم. ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل، كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين، أي: يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً، أي: يحييها الله حتى تُخبر أنها ليست أهلاً للعبادة. ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ هو الله جلّ وعزّ، أي: لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا ينبئك مثله في عمله^(١).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في بقائكم وكل أحوالكم. الزمخشري: فإن قلت: لِمَ عَرَفَ «الفقراء»؟ قلت: قَصَدَ بذلك أن يُريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه؛ من الناس وغيرهم؛ لأنَّ الفقر ممَّا يتبع الضَّعْفَ، وكلِّما كان الفقير أضعف كان أفقر^(٢)؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ ولو نكّر لكان المعنى: أنتم بعض الفقراء.

فإن قلت: قد قُوبِلَ «الفقراء» بـ «الغني» فما فائدة «الحميد»؟

قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم، وليس كلُّ غنيٍّ نافعاً بغناه إلا إذا كان الغنيُّ جواداً مُنعمًا، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحقَّ عليهم الحمد، ذكر «الحميد» ليدلَّ به على أنه الغنيُّ النافعُ بغناه خلقه، الجوادُ المنعمُ عليهم، المستحقُّ بإنعامه عليهم أن يحمده^(٣).

(١) في (خ) و (ز): علمه.

(٢) في (خ): أحقر.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

وتخفيفُ الهمزة الثانية أجودَ الوجوه عند الخليل، ويجوزُ تخفيفُ الأولى وحدها^(١)، وتخفيفُهما وتحقيقُهما جميعاً. ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ تكون «هو» زائدة، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وتكون مبتدأةً فيكون موضعُها رفعاً^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ فيه حذف، المعنى: إن يشأ [أن] يُذْهِبْكُمْ يُذْهِبْكُمْ^(٣)، أي: يفتنكم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أطوع منكم وأزكى. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ممتنعٌ عسيرٌ مُتَعَذِّرٌ. وقد مضى هذا في «إبراهيم»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوَاهِرِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَتْ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّهَا تَنْبُرُ عَلَىٰ النَّارِ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٧﴾

تقدّم الكلام فيه^(٥)، وهو مقطوعٌ ممّا قبله. والأصل: «توزر» حذفت الواو اتباعاً ليزر. ﴿وَازِرَةٌ﴾ نعتٌ لمحذوف، أي: نفسٌ وازرةٌ. وكذا ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوَاهِرِهَا﴾ قال الفراء^(٦): أي: نفسٌ مُثْقَلَةٌ، أو دابةٌ. قال: وهذا يقع للمذكر والمؤنث. قال الأخفش^(٧): أي: وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إنساناً إلى جِوَاهِرِهَا، وهو ذنوبها. والجِوَاهِرُ: ما كان

(١) في (د): وحذفها، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٨، وسهّل الثانية كالياء وأبدلها واواً مكسورة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحققها الباقون وأما تخفيف الأولى؛ فهو لحمزة وهشام عند الوقف حسب أصولهما فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٧-٣٦٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١٢٥/١٢.

(٥) ١٤٥/٩.

(٦) في معاني القرآن ٢/٣٦٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦٨.

(٧) في معاني القرآن له ٢/٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦٨.

على الظَّهْر، وَالْحَمْلُ: حَمَلُ الْمَرْأَةِ، وَحَمَلُ النَّخْلَةِ؛ حَكَاهُمَا الْكِسَائِيُّ بِالْفَتْحِ لَا غَيْرَ. وَحَكَى ابْنُ السَّكَيْتِ أَنَّ حَمْلَ النَّخْلَةِ يُفْتَحُ وَيُكْسَرُ.

﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسان المدعو ذَا قُرْبَى. وأجاز الفراء: ولو كان ذُو قُرْبَى. وهذا جائز عند سيبويه، ومثله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فتكون «كان» بمعنى: وقع، أو يكون الخبرُ محذوفاً، أي: وإن كان فيمَن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناسُ مَجْزِيُونَ بأعمالهم إن خيرٌ فخيرٌ؛ على هذا، وخيراً فخييراً^(١)؛ على الأول.

وروي عن عكرمة أنه قال: بلغني أن اليهوديَّ والنَّصرانيَّ يرى الرجلَ المسلمَ يومَ القيامةِ فيقولُ له: ألم أكن قد أسديتُ إليك يداً، ألم أكن قد أحسنتُ إليك؟ فيقول: بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزالُ المسلم يسألُ الله تعالى حتى يُنْقِصَ من عذابه. وأنَّ الرجلَ ليأتي إلى أبيه يومَ القيامةِ فيقول: ألم أكن بك باراً، وعليك مُشْفِقاً، وإليك مُحْسِناً؟ وأنت ترى ما أنا فيه، فهَبْ لي حسنةً من حسناتك، أو احمِلْ عني سيئةً، فيقول: إنَّ الذي سألتني يسيراً، ولكنِّي أخافُ مثلَ ما تخاف. وأنَّ الأبَّ ليقول لابنه مثلَ ذلك، فيردُّ عليه نحواً من هذا. وأنَّ الرجلَ ليقول لزوجته: ألم أكنُ حَسَنَ^(٢) العِشرةِ لك؟ فأحملي عني خطيئةً لعلِّي أنجو، فتقول: إنَّ ذلك ليسيرٌ ولكنِّي أخاف ممَّا تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾^(٣).

(١) في (د) و (م): وخيراً فخييراً، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس، وكلا الوجهين صحيح، والتقدير: إن كان الذي عمِلَ خيراً جُزِيَ خيراً، أو: إن كان الذي عمِلَ خيراً فالذي يُجْزَى به خيراً. وإذا رفع الاثنين فالتقدير: إن كان في عمله خير فالذي يجزى به خير. ينظر الكتاب ٢٥٨/١-٢٦٠.

وقول الفراء في معاني القرآن ٣٦٨/٢. وقول الأخفش في معاني القرآن ٦٦٥/٢.

(٢) في (د) و (م): أحسن.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٦٩/٣، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور

وقال الفضيل بن عياض: هي المرأة تُلقي ولدها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاء؟ ألم يكن ثديي لك سقاء؟ ألم يكن حجري لك وطاء؟ فيقول: بلى يا أمّاه! فتقول: يا بني، قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً، فيقول: إليك عني يا أمّاه، فأني بذنبي عنك مشغول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: إنّما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه. وقُرى: «ومن ازكى فإنما يزكى لنفسه»^(١). ﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مرجع جميع الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ١٨ ﴿وَلَا الظُّلْمَتُ وَلَا النُّورُ﴾ ١٩ ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ ٢٠ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ٢١

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم. مثل: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿وَلَا الظُّلْمَتُ وَلَا النُّورُ﴾ قال الأخفش سعيد^(٢): «لا» زائدة؛ والمعنى: ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحُرور.

قال الأخفش: والحُرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسموم يكون بالليل^(٣).

(١) المحرر الوجيز ٣٠٦/٤، والبحر ٣٠٨/٧ عن طلحة، وهي قراءة شاذة.

(٢) في معاني القرآن ٦٦٥/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣٦٩/٣.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤١٩/٤، وفيه: ... والسموم يكون بالليل والنهار، ولم تقف على هذا القول في معاني القرآن للأخفش.

وقيل بالعكس^(١). وقال زُؤبَةُ بْنُ الْعِجَاجِ: الْحَرُورُ يَكُونُ بِاللَّيْلِ^(٢) خَاصَّةً، وَالسَّمُومُ يَكُونُ بِالنَّهَارِ^(٣) خَاصَّةً، حَكَاهُ الْمَهْدَوِيُّ^(٤). وَقَالَ الْفَرَّاءُ: السَّمُومُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالنَّهَارِ، وَالْحَرُورُ يَكُونُ فِيهِمَا^(٥). النَّحَاسُ^(٦): وَهَذَا أَصْحَحُ؛ لِأَنَّ الْحَرُورَ فَعُولٌ مِنَ الْحَرِّ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّكْثِيرِ، أَيْ: الْحَرَّ الْمُؤْذِي.

قلت: وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قالت النار: رَبِّ أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذَنْ لِي أَنْتَفَسَ، فَأَذَنْ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ بَرْدٍ أَوْ زَمْهَرِيرٍ فَمِنْ نَفْسٍ جَهَنَّمَ، وَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ حَرٍّ أَوْ حَرُورٍ فَمِنْ نَفْسٍ جَهَنَّمَ»^(٧).

وروي من حديث الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَمَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ فَمِنْ سَمُومِهَا، وَشِدَّةُ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ فَمِنْ زَمْهَرِيرِهَا»^(٨) وهذا يجمع تلك الأقوال، وأنَّ السَّمُومَ وَالْحَرُورَ يَكُونُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَتَأَمَّلْهُ.

وقيل: المراد بالظلِّ وَالْحَرُورِ: الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَالْجَنَّةُ ذَاتُ ظِلٍّ دَائِمٍ، كَمَا قَالَ

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦٩ فقال: وقيل: الحرور لا يكون إلا بالليل، والسموم يكون بالنهار.

(٢) في (د) و(م): بالنهار.

(٣) في النسخ: بالليل، والمثبت عن مجاز القرآن ٢/١٥٤، وتفسير الطبري ١٩/٣٥٦، ومعاني القرآن للنحاس ٥/٤٥١، والمحزر الوجيز ٤/٤٣٥، وزاد المسير ٦/٤٨٣.

(٤) بعدها في (ظ): وقال السموم في الليل.

(٥) تفسير الطبري ١٩/٣٠٨، والنكت والعيون ٤/٤٦٩، والمحزر الوجيز ٤/٤٣٦، وزاد المسير ٦/٤٨٣، ولم نقف عليه في معاني القرآن له.

(٦) في إعراب القرآن ٣/٣٦٩-٣٧٠.

(٧) صحيح مسلم (٦١٧): (١٨٧)، وهو عند أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٥٣٧) و(٣٢٦٠).

(٨) أخرجه بنحوه بهذا الإسناد مرفوعاً أحمد (٧٢٤٧)، والبخاري (٥٣٧). وأخرجه بلفظ المصنف ابن ماجه (٤٣١٩) وابن عبد البر في التمهيد ٥/١٦-١٧ عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

تعالى: ﴿أَكُلُّهَا ذَائِبٌ وَظُلُمَاتٌ﴾ [الرعد: ٣٥]، والنار ذات حرور؛ قال معناه السدي^(١). وقال ابن عباس: أي ظل الليل، وحر السموم بالنهار. فطرب: الحرور: الحر، والظل: البرد^(٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ قال ابن قتيبة^(٣): الأحياء: العقلاء، والأموات: الجهال. قال قتادة: هذه كلها أمثال، أي: كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن^(٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم، أي: كما لا تسمع من مات، كذلك لا تسمع من مات قلبه.

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي وعمرو بن ميمون: «بمسمع من في القبور» بحذف التنوين تخفيفاً، أي: هم بمنزلة [أهل] القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعون ولا يقبلونه^(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾

أي: رسول منذر، فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهدى شيء، إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً بالجنة أهل طاعته،

(١) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المشور ٥/٢٤٩.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦٩، ولم تقف على خير ابن عباس.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص ٣٦١.

(٤) الوسيط ٣/٥٠٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/١٣٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه، والقراءة في القراءات الشاذة ص ١٢٣

ونذيراً بالنار أهل معصيته. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: سَلَفَ فِيهَا نَبِيٌّ. قال ابن جريج: إلا العرب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني: كفار قريش ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم، يُسَلِّي رَسُولَهُ ﷺ. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح. وكرّر الزُّبُرَ والكتابَ وهما واحدٌ لاختلاف اللفظين. وقيل: ترجعُ البيّناتُ والزُّبُرُ والكتابُ إلى معنَى واحدٍ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبتها ورشٌ عن نافع وشيبة الياء في «نكيري» حيث وقعت في الوصلِ دون الوقف. وأثبتها يعقوب في الحالين، وحذفها الباقون في الحالين^(٢). وقد مضى هذا كله، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِمَّنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذه الرؤية رؤية القلب والعلم، أي: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ وَرَأَيْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ، فـ«أَنَّ» واسمها وخبرها سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولِي الرُّؤْيَةِ.

(١) النكت والعيون ٤/٤٧٠.

(٢) التيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/٣٥٢.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ هو من بابِ تلوينِ الخطابِ ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ نُصِبْتُ «مُخْتَلِفًا» نعتاً لـ «ثَمَرَاتٍ»، «أَلْوَانُهَا» رفع بـ «مختلف». وصلح أن يكون نعتاً لـ «ثَمَرَاتٍ» لما عاد عليه من ذكْرِهِ. ويجوزُ في غيرِ القرآنِ رَفْعُهُ، ومثله: رأيتُ رجلاً خارجاً أبوه^(١).

﴿بِهِ﴾ أي: بالماء وهو واحدٌ، والشمراُتُ مختلفةٌ ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ الجُدُدُ: جمعُ جُدَّةٍ، وهي الطرائقُ المختلفةُ الألوان، وإن كان الجمعُ حجراً أو تراباً. قال الأخفش^(٢): ولو كان جمعَ جديدٍ لقال: جُدُد - بضمِّ الجيمِ والبدال - نحو: سَرِير وسُرُر. وقال زهير:

كأنه أسفعُ الخدين ذو جُدَدٍ طاوٍ ويرتُع بعد الصيفِ عُريانا^(٣)
وقيل: إنَّ الجُدَدَ: القِطْع، مأخوِذٌ من جددُ الشيء: إذا قطعته؛ حكاه ابن بحر^(٤).

قال الجوهري^(٥): والجُدَّة: الحُطَّة التي في ظهر الحمارٍ تُخالِفُ لونه. والجُدَّة: الطَّرِيقَةُ، والجمعُ جُدُد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: طرائقُ تُخالِفُ لونَ الجبل. ومنه قولهم: رَكِبَ فلانٌ جُدَّةً من الأمر: إذا رأى فيه رأياً. وكساءٌ مجدَّد: فيه خطوطٌ مختلفة.

الزمخشري^(٦): وقرأ الزُّهْرِيُّ: «جُدُد» بالضم جمعَ جَدِيدَةٍ، وهي الجُدَّة؛ يقال:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠، ولم نقف عليه في ديوان زهير. قوله: أسفع الخدين، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٢٧٢: السفعة في الخد: كل لون يخالف سائر لونه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٥) في الصحاح (جدد).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٠٧.

جديدة وُجِدَ وجَدَائِد، كسفيئة وسُفُن وسَفَائِن. وقد فسّر بها قول أبي ذؤيب:

جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرَبُعٌ^(١)

ورُوي عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريقُ الواضحُ المُسْفِر، وَضَعَهُ موضعَ الطرائقِ والخطوطِ الواضحةِ المنفصلِ بعضها من بعضٍ^(٢).

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ﴾ وقُرئ: «والدواب» مخففاً، ونظيرُ هذا التخفيفِ قراءةُ مَنْ قرأ: «وَلَا الضَّالِّينَ»؛ لِأَنَّ كِلَّ واحدٍ منهما فرٌّ من التقاءِ الساكّنين، فحرّك ذلك أولهما، وحذفت هذا آخرهما؛ قاله الزمخشري^(٣).

﴿وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي: فيهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وغيرُ ذلك، وكلُّ ذلك دليلٌ على صانعٍ مُختارٍ، وقال: «مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ» فذكر الضميرَ مُراعاةً لـ«من»؛ قاله المؤرّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنّما ذكّر الكنايةَ لِأَجْلِ أَنَّهَا مردودةٌ إلى «ما» مُضمّرة، مجازُهُ: ومن الناسٍ ومن الدوابِّ ومن الأنعامِ ما هو مختلفٌ ألوانه، أي: أبيضٌ وأحمرٌ وأسود.

﴿وَعَرَابٍ سُوْدٌ﴾ قال أبو عبيدة^(٤): الغريبُ: الشديدُ السّوادِ، ففي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: ومن الجبالِ سوّدٌ غرابيّ. والعربُ تقولُ للشديدِ السّوادِ الذي لونه كَلَوْنِ العُرابِ: أسودٌ غريبٌ.

(١) ديوان الهذليين ص ٤ ، والخزانة ١/٤٢٠ ، صدره: والدهر لا يبقى على جذثانه قال البغدادي: الحدثان بمعنى الحادثة، والسّرة: أعلى الظهر. والجَوْنُ: الأسود المائل إلى الحمرة، أراد الحمار الوحشي. اهـ. والجدايد: الأثْنُ التي لا ألبان لها، واحدها جدود، بفتح الجيم. أو أنها الخطوط التي على ظهر الحمار - وهو المراد هنا - كما نقل المصنف عن الزمخشري أعلاه.

(٢) الكشاف ٣/٣٠٧ ، والقراءتان في المحتسب ٢/١٩٩-٢٠٠ ، وقراءة «جَدَد» بفتح الجيم ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٣-١٢٤ .

(٣) في الكشاف ٣/٣٠٧ ، وقراءة: «والدواب» بالتخفيف في المحتسب ٢/٢٠٠ عن الزهري. وقراءة: «الضالّين» بالهمز في القراءات الشاذة ص ١ ، والمحتسب ١/٤٦ عن أيوب السخيتاني.

(٤) بنحوه في مجاز اللغة ٢/١٥٤ .

قال الجوهرى^(١): وتقول: هذا أسودٌ غريبٌ، أي: شديدُ السَّواد. وإذا قلتَ: غرايبُ سودٌ، تجعلُ السودَ بدلاً من غرايبٍ؛ لأنَّ تواكيدَ الألوانِ لا تتقدَّم.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الْغَرِيبَ» يعني الذي يَخْضِبُ بالسَّواد^(٢). قال امرؤ القيس:

العَيْنُ طامحةٌ واليَدُ سابحةٌ والرَّجْلُ لافحةٌ والوجهُ غَرِيبُ^(٣)
وقال آخرٌ يَصِفُ كَرَمًا:

ومن تَعَاجِبِ خَلْقِ اللَّهِ غَاطِيَةٌ يُعَصِّرُ مِنْهَا مُلَاحِيًّا وَغَرِيبُ^(٤)

﴿كَذَلِكَ﴾ هنا تمامُ الكلام^(٥)، أي: كذلك تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشية، ثم استأنفَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يعني بالعلماء: الذين يخافون قدرته، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدِيرٌ، أَيَقِنَ بِمَعَابِقَتِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، كَمَا رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٦).

وقال الربيع بن أنس: مَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ تَعَالَى فَلَيْسَ بِعَالِمٍ^(٧).

(١) في الصحاح (غرب).

(٢) النكت والعيون ٤/٤٧٠. والحديث أخرجه ابن عدي ٣/١٠١٦، وفي إسناده رشدين بن سعد، قال فيه الحافظ في التقریب: ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٤/٤٧١، ورواية الديوان ص ٢٢٦:

والعَيْنُ قَادِحَةٌ واليَدُ سَابِحَةٌ والرَّجْلُ طَامِحَةٌ واللَّوْنُ غَرِيبُ
قال شارح الديوان: قاذحة: غائرة، واليد سابحة: إذا مددت يديها فكانها تسبح، يريد السرعة (والكلام عن فرسه)، وقوله: طامحة، أي: سريعة الدفع. وقوله: غريب، يريد السواد، يعني أنها دهماء.

(٤) أدب الكاتب ص ٣٧٨، وجمهرة اللغة ٢/١٩١، واللسان (غظي). قال ابن دريد: كل شجرة منبسطة على الأرض فهي غاطية، يعني الكرم، وعنب مُلَاحِي: إذا كان أبيض.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٤٨٩.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/٣٦٤.

(٧) النكت والعيون ٤/٤٧١.

وقال مجاهد: إنما العالمُ من خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ. وعن ابن مسعود: كَفَى بِخَشِيَةِ اللهِ تعالى عِلْماً، وبالاغترار [به] جَهْلاً^(١).

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَنْ أَفْقَهُ أَهْلَ المَدِينَةِ؟ قال: أَتَقَاهُمْ لِربِّهِ عزَّ وجلَّ^(٢). وعن مجاهد قال: إِنَّمَا الفَقِيهُ مَنْ يَخَافُ اللهَ عزَّ وجلَّ^(٣). وعن عليٍّ ؓ قال: إِنَّ الفَقِيهَ حَقَّ الفَقِيهِ مَنْ لَمْ يَقْطَعْ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعْاصِيِ اللهِ تَعَالَى، وَلَمْ يُؤْمَنْهُمْ مِنْ عَذَابِِ اللهِ، وَلَمْ يَدْعِ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةِ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةَ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا^(٤).

وأَسَدُ الدَّارِمِيِّ أَبُو مُحَمَّدٍ عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُمْ». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنَ عِبَادِهِ اَلْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِيهِ وَالنُّونَ فِي البَحْرِ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ النَّاسَ الخَيْرِ الخَيْرُ مَرْسَلٌ^(٥).

قال الدارمي^(٦): وحدثني أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن يزيد بن حازم قال: حدثني عمي جرير بن زيد^(٧) أنه سمع ثبيعا يحدث عن كعب قال: إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل، ويتفقهون لغير العبادة، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١، وما بين حاصرتين منه، وقول ابن مسعود ؓ أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩١. وسيرد تخريج قول مجاهد.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٧، والدارمي (٢٩٦).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٩٧) و(٢٩٨)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٦٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦٠-١٦١.

(٥) سنن الدارمي (٢٨٩)، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٥) مرفوعاً من حديث أبي أمامة الباهلي ؓ، وقال: هذا حديث غريب.

(٦) في سننه (٢٩٩).

(٧) في النسخ: يزيد، والمثبت من سنن الدارمي، وهو الصواب. وترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٥٣٢.

وَيَلْبَسُونَ جِلْوَدَ الضَّانِ، قلوبُهم أمرٌ من الصَّبْر؛ فبِى يَغْتَرُونَ، وإِياي يُخَادِعُونَ، فبِى حَلَفْتُ لِأَتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَذُرُّ الْحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانَ. خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ مَرْفُوعاً مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَقَدْ كَتَبْنَا فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ (١).

الزَّمخَشَرِيُّ (٢): فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ» بِالرَّفْعِ «مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ» بِالنَّصْبِ، وَهُوَ عَمْرٌ بِنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَتُحْكَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ.

قُلْتُ: الْخَشْيَةُ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ اسْتِعَارَةٌ، وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا يُجِلُّهُمْ وَيُعْظِمُهُمْ - كَمَا يُجِلُّ الْمَهَيْبُ الْمَخْشِيُّ مِنَ الرِّجَالِ بَيْنَ النَّاسِ - مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ عِبَادِهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تَعْلِيلٌ لَوْجُوبِ الْخَشْيَةِ، لِدَلَالَتِهِ عَلَى عَقُوبَةِ الْعَصَاةِ وَقَهْرِهِمْ، وَإِثَابَةِ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ. وَالْمَعَاقِبُ وَالْمُثِيبُ حَقُّهُ أَنْ يُخْشَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٦﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٧﴾﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هَذِهِ آيَةُ الْقُرَّاءِ الْعَامِلِينَ الْعَالِمِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الْفَرْضَ وَالنَّفْلَ، وَكَذَا فِي الْإِنْفَاقِ. وَقَدْ مَضَى فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِ قَارِئُ الْقُرْآنِ (٣). ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: خَبَرُ «إِنَّ»: «يَرْجُونَ» (٤).

﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قِيلَ: الزِّيَادَةُ: الشَّفَاعَةُ فِي الْآخِرَةِ. وَهَذَا مِثْلُ الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَيْعٌ وَلَا بِيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾

(١) ٣٥/١، وَلَمْ يَخْرُجْهُ التِّرْمِذِيُّ، وَيَنْظُرُ الْكَلَامَ عَلَى الْحَدِيثِ ثَمَّة.

(٢) فِي الْكَشَافِ ٣/٣٠٨.

(٣) ٤٨/١ وَمَا بَعْدَهَا.

(٤) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٣/٣٧١.

[النور: ٣٧]، وقوله في آخر «النساء»: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الآية: ١٧٣] وهناك بيّناه. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ للدُّنُوب. ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص، ويثيب عليه الجزيل من الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيُلَوَّلُونَ عَلَيْهَا بَسَائِرُهَا وَهُمْ فِيهَا خَالِدِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴿٣٩﴾ شُكُورٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ أَهْلْنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٤١﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: هذه الآية مُشْكِلَةٌ؛ لأنه قال جلَّ وعزَّ: ﴿أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. قال النحاس^(١): فَمِنْ أَصْحَ مَا رُوي فِي ذَلِكَ مَا رُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قال: الكافر؛ رواه ابنُ عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار^(٢)، عن ابن عباس. وعن

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧١.

(٢) بعدها في النسخ: عن عطاء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥، والبيهقي في البعث والنشور (٧٤)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وليس فيه: عن عطاء.

ابن عباس أيضاً: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: نَجَتْ فرقتان^(١)، ويكون التقدير في العربية: «فمنهم» أي: من عبادنا «ظالمٌ لنفسه» أي: كافر - وقال الحسن: أي: فاسق - ويكون الضمير الذي في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على المقتصدِ والسابقِ لا على الظالم.

وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفراء أن المقتصد: المؤمنُ العاصي، والسابق: التقيُّ على الإطلاق. قالوا: وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الآية [الواقعة: ٧]. قالوا: ويعيدُ أن يكون مَمَّنْ يُصْطَفَى ظالم^(٢). ورواه مجاهدٌ عن ابن عباس^(٣). قال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾: أصحاب المشأمة، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾: أصحاب الميمنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾: السابقون من الناس كلهم^(٤).

وقيل: الضميرُ في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على الثلاثة الأصناف، على ألا يكون الظالمُ هاهنا كافراً ولا فاسقاً. وممن روي عنه هذا القولُ عمرُ وعثمانُ وأبو الدرداء، وابنُ مسعودٍ وعقبةُ بن عمرو وعائشةُ، والتقديرُ على هذا القولِ: أن يكون الظالمُ لنفسه: الذي عمِلَ الصغائر. والمقتصدُ، قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقَّها والآخرةَ حقَّها، فيكون «جَنَاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا» عائداً على الجميع على هذا الشرح والتبيين^(٥). وروي عن أبي سعيد الخُدري^(٦).

(١) أخرجه الطبري ٣٧١/١٩ بنحوه، والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٩، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/٣٦٩-٣٧٠، وأخرجه عن عكرمة وقتادة الطبري ٣٧١/١٩، ٣٧٢.

(٣) أخرجه الطبري ٣٧١/١٩ عن طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ٣٧٢/١٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٢، وأخرجه عن عمر وعثمان رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٢٣٠٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٦٦)، وإسناده غير قوي كما ذكر في البيهقي، وخبر عمر ﷺ سيرد مرفوعاً من حديثه، وسيأتي الخبر عن أبي الدرداء وابن مسعود وعائشة ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن كثير عند هذه الآية: وفي إسناده من لم يُسَمَّ.

وقال كعب الأحبار: استوت مناكيهم ورب الكعبة، وتفاضلوا بأعمالهم. وقال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة: فكلهم ناج^(١).

وروى أسامة بن زيد: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلهم في الجنة»^(٢).

وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»^(٣). فعلى هذا القول يقدر مفعول الاصطفاء من قوله: ﴿أَوْزِنَا أَلْكَتَبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مضافاً حذف كما حذف المضاف في ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: اصطفينا دينهم، فبقي: اصطفيناها، فحذف العائد إلى الموصول كما حذف في قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١] أي: تزدريهم، فالاصطفاء إذا موجّه إلى دينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قال النحاس^(٤): وقول ثالث: يكون الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فيكون: ﴿جَنَّتْ عَيْنِي يَدْخُلُونَهَا﴾ للذين سبقوا بالخيرات لا غير. وهذا قول جماعة من أهل النظر؛ لأن الضمير - في حقيقة النظر - لما يليه أولى.

قلت: القول الوسط أولاها وأصحها إن شاء الله؛ لأن الكافر والمنافق لم

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٣٩، وأخرجهما الطبري ١٩/٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٩، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٤١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٦/٧: فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سني الحفظ.

(٣) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٥) عن طريق ميمون بن سياه عن عمر به، وهو منقطع كما ذكر البيهقي، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/٤٤٣، والبعثي ٣/٥٧١ من وجه آخر من طريق ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر به، وفيه الفضل بن عميرة وهو ضعيف. ينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص ١٣٩. وذكر البغوي عن أبي قلابة قوله: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٧٢.

يُصْطَفُوا بِحَمْدِ اللَّهِ، وَلَا اصْطَفَيْ دِينَهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ سِتَّةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَحَسْبُكَ.
وَسَنَزِيدُهُ بَيَانًا وَإِضَاحًا فِي بَاقِي الْآيَةِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْزَنَّا الْكُتُبَ﴾ أي: أعطينا. والميراثُ عطاءٌ حقيقةً أو مجازاً؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موتِ آخر. و«الكتاب» هاهنا يريد به معاني الكتابِ وعِلْمَهُ وأحكامه وعقائده، وكأنَّ الله تعالى لَمَّا أعطى أُمَّةً محمدٍ ﷺ القرآن، وهو قد تضمَّنَ، معاني الكتابِ المنزلة، فكأنه ورثَ أُمَّةً محمدٍ عليه الصلاة والسلام الكتابَ الذي كان في الأممِ قَبْلَهَا^(١).

﴿أَصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخترنا. واشتقاقه من الصَّفْو، وهو الخلوُّ من شوائب الكدر. وأصله: اصْتَفَوْنَا، فَأَبْدَلْتُ التَّاءَ طَاءً وَالْوَاوُ يَاءً.

﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيل: المرادُ أُمَّةٌ محمدٍ ﷺ؛ قاله ابنُ عباسٍ وغيره. وكان اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ، إِلَّا أَنَّ عِبَارَةَ تَوْرِيثِ الْكِتَابِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْأَوَّلُ لَمْ يَرْتُوهُ^(٢).

وقيل: المصطفون الأنبياء، توارثوا الكتاب، بمعنى: أنه انتقل عن^(٣) بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]. فإذا جاز أن تكون النبوة موروثةً فكذلك الكتابُ، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ من وَقَعَ فِي صَغِيرَةٍ. قال ابن عطية^(٤): وهذا قولٌ مردودٌ من غير ما وَجَّه.

قال الضحاك: معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: من ذرِّيَّتِهِمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ، وهو المُشْرِكُ. الحسن: من أُمَّهِمْ، على ما تقدَّم ذَكَرَهُ مِنَ الْخِلَافِ فِي الظَّالِمِ. وَالْآيَةُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

(١) في النسخ عدا (ظ): قبلنا، والمثبت من (ظ) والمحرو الوجيز ٤/٤٣٨، والكلام منه.

(٢) المحرو الوجيز ٤/٤٣٨، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٩/٣٦٨، والبيهقي في البعث والنشور (٧٣).

(٣) في (ظ): من.

(٤) في المحرو الوجيز ٤/٤٣٩.

وقد اختلفت عبارات أرباب القلوب في الظالم والمقتصد والسابق، فقال سهل ابن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل.

وقال: ذو النون المصري: الظالم الذَّاكِرُ الله بلسانه فقط، والمقتصدُ الذَّاكِرُ بقلبه، والسابقُ الذي لا ينساه.

وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال^(١).

وقال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحبه من أجل العُقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق^(٢).

وقيل: الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبد الله طمعاً في الجنة، والسابق الذي يعبد الله لوجهه لا لسبب.

وقيل: الظالم الزاهد في الدنيا؛ لأنه ظلم نفسه فترك لها حظاً وهي المعرفة والمحبة، والمقتصد العارف، والسابق المحب.

وقيل: الظالم الذي يَجْزَعُ عند البلاء، والمقتصد الصابر على البلاء، والسابق المتلذذ بالبلاء.

وقيل: الظالم الذي يعبد الله على العُقْلَة والعادة، والمقتصد الذي يعبد الله على الرِّغْبَة والرَّهْبَة، والسابق الذي يعبد الله على الهَيْبَة.

وقيل: الظالم الذي أُعْطِيَ فَمَنَعَ، والمقتصد الذي أُعْطِيَ فَبَدَلَ، والسابق الذي مُنِعَ فَشَكَرَ وَأَثَرَ.

ويروى أن عابدين التقي، فقال: كيف حال إخوانكم بالبصرة؟ قال: بخير، إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا. فقال: هذه حالة الكلاب عندنا يبلخ! عبأدنا إن

(١) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٣٩.

(٢) في (ظ): بمراد الله.

مُنِعُوا شَكَرُوا، وَإِنْ أَعْطُوا آثَرُوا^(١).

وقيل: الظالمُ مَنْ استغنى بماله، والمقتصدُ مَنْ استغنى بدينه، والسابقُ مَنْ استغنى بربه.

وقيل: الظالمُ التالي للقرآن ولا يعملُ به، والمقتصدُ التالي للقرآن ويعملُ به، والسابقُ القارئُ للقرآن العاملُ به والعالمُ به.

وقيل: السابقُ الذي يدخل المسجدَ قبل تأذين المؤذن، والمقتصدُ الذي يدخل المسجدَ وقد أذن، والظالم الذي يدخل المسجدَ وقد أقيمت الصلاة؛ لأنه ظلم نفسه الأجرَ فلم يحصلَ لها ما حصله غيره^(٢).

وقال بعضُ أهل العلمِ في هذا: بل السابقُ الذي يدرك الوقتَ والجماعةَ فيُدركُ الفضيلتين، والمقتصد الذي إن فاتته الجماعةُ لم يُفِرطَ في الوقت، والظالمُ الغافلُ عن الصلاة حتى يفوتَ الوقتَ والجماعةَ، فهو أولى بالظلم.

وقيل: الظالمُ الذي يحبُّ نفسه، والمقتصدُ الذي يحبُّ دينه، والسابقُ الذي يحبُّ ربه.

وقيل: الظالمُ الذي ينتصفُ ولا يُنصفُ، والمقتصدُ الذي ينتصفُ ويُنصفُ، والسابقُ الذي يُنصفُ ولا ينتصفُ.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: السابقُ الذي أسلمَ قبلَ الهجرة، والمقتصدُ مَنْ أسلمَ بعدَ الهجرة، والظالمُ مَنْ لم يُسلمَ إلا بالسيف، وهم كلُّهم مغفورٌ لهم^(٣).

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٣٧/٨ عن إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي.

(٢) في (ظ): فلم يحصل له ما حصل لغيره.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٣٩ وعزاه للثعلبي، إلا أنه قال في آخره: والظالم نحن، بدل: والظالم من لم يسلم... وأخرجه بنحوه الطيالسي (١٤٨٩)، والحاكم ٤٢٦/٢ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلت بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي. وقولها رضي الله عنها: والظالم نحن، (كما في رواية ابن عطية، وبنحوه عند الطيالسي والحاكم) هو من باب التواضع =

قلت: ذكر هذه الأقوال وزيادة عليها الثعلبي في «تفسيره». وبالجملة فهم طرفان وواسطة، وهو المقتصد الملازم للقصد، وهو ترك الميل، ومنه قول جابر بن حني الثعلبي:

نُعَاطِي الْمَلُوكِ السُّلَمَ مَا قَصَدُوا لَنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمَحْرَمٍ^(١)
 أي: نُعَاطِيهِمْ^(٢) الصُّلْحَ مَا رَكَبُوا بِنَا الْقَصْدَ، أي: ما لم يجوروا، وليس قتلهم
 بمحرم علينا إن جاروا، فلذلك^(٣) كان المقتصد منزلةً بين المنزلتين، فهو فوق الظالم
 لنفسه ودون السابق بالخيرات.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني إتياننا^(٤) الكتاب لهم. وقيل: ذلك
 الاصطفاء مع علمنا بعبوبهم هو الفضل الكبير. وقيل: وغد الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل
 كبير.

الثالثة: وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق؛ فقيل: التقديم في
 الذكر لا يقتضي تشريفاً، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ﴾
 [الحشر: ٢٠].

وقيل: قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة
 إليهم، والسابقون أقل من القليل؛ ذكره الرّمخشري^(٥)، ولم يذكره غيره.

وقيل: قدم الظالم لتأكيد الرجاء في حقه؛ إذ ليس له شيء يتكل عليه إلا رحمة

= كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وقال: وهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء
 كفضل الثريد على سائر الطعام.

(١) المفضليات ص ٢١١، ومتهى الطلب ٤٩/٤.

(٢) في (ظ): نعطيهم.

(٣) في (ظ): فكذلك.

(٤) في (ظ): ايتاؤنا.

(٥) في الكشاف ٣/٣٠٩.

رَبِّهِ. وَاتَّكَلِ الْمُقْتَصِدُ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ، وَالسَّابِقُ عَلَى طَاعَتِهِ.

وقيل: قَدَّمَ الظَّالِمَ لثَلَا يَيْشَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَخَّرَ السَّابِقَ لثَلَا يُعْجَبُ بِعَمَلِهِ.

وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق عليه السلام: قَدَّمَ الظَّالِمَ لِيُخْبِرَ أَنَّهُ لَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ إِلَّا بِصِرْفِ رَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ، وَأَنَّ الظُّلْمَ لَا يُؤَثِّرُ فِي الاِصْطِفَائِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمَّ عِنَايَةً، ثُمَّ ثَنَّى بِالْمُقْتَصِدِينَ لِأَنَّهْم بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، ثُمَّ خَتَمَ بِالسَّابِقِينَ لثَلَا يَأْمَنُ أَحَدٌ مَكْرَ اللَّهِ، وَكُلَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ بِحُرْمَةِ كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ^(١).

وقال محمد بن علي الترمذي: جَمَعَهُمْ فِي الاِصْطِفَاءِ إِزَالَةَ لِلْعَلَلِ عَنِ الْعَطَاءِ؛ لِأَنَّ الاِصْطِفَاءَ يُوجِبُ الْإِزْثَ، لَا الْإِزْثَ يُوجِبُ الاِصْطِفَاءَ، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي الْحِكْمَةِ: صَحَّحَ النُّسْبَةَ ثُمَّ ادَّعَى فِي الْمِيرَاثِ^(٢).

وقيل: أَخَّرَ السَّابِقَ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى الْجَنَاتِ وَالثَّوَابِ، كَمَا قَدَّمَ الصَّوَامِعَ وَالبَيْعَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ عَلَى الْمَسَاجِدِ، لِتَكُونَ الصَّوَامِعُ أَقْرَبَ إِلَى الْهَدْمِ وَالخَرَابِ، وَتَكُونَ الْمَسَاجِدُ أَقْرَبَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ.

وقيل: إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا أَرَادُوا الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ بِالذِّكْرِ^(٣) قَدَّمُوا الْأَذْنَى؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَسْرِيعٍ أَلْعَابِ وَإِنَّهُمْ لَفُفُورٌ رَجِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِثَاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قلت: وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

وَعَايَةُ هَذَا الْجُودِ أَنْتَ وَإِنَّمَا يُوَافَى إِلَى الْغَايَاتِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ
الرَّابِعَةَ: قَوْلُهُ: ﴿جَنَّكَ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جَمَعَهُمْ فِي الدَّخُولِ لِأَنَّهُ مِيرَاثٌ، وَالْعَاثُ

(١) ذَكَرَهُ بِنُحُوهِ الْبَغَوِيِّ ٥٧٢/٣.

(٢) فِي (ظ): ثُمَّ ادَّعَى لِلْمِيرَاثِ، وَفِي (خ) وَ (د) وَ (ز): ثُمَّ ادَّعَى فِي الْمِيرَاثِ، وَالْمَبْتُثُ مِنْ (م).

(٣) فِي (ظ): فِي الذِّكْرِ.

والبار في الميراث سواء إذا كانوا مُعْتَرِفِينَ بِالنَّسَبِ، فالعاصي والمطيع مُقْرُونَ بِالرَّبِّ. وقرئ: «جَنَّةٌ عَدْنٌ» على الإفراد، كأنها جنةٌ مُخْتَصَّةٌ بالسابقين لقتلتهم، على ما تقدّم (١).

و«جَنَاتٍ عَدْنٍ» بالنصب على إضمارِ فعلٍ يفسرُه الظاهرُ، أي: يَدْخُلُونَ جَنَاتِ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا (٢). وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء (٣). قال: لقوله: «يُحَلَّلُونَ». وقد مضى في «الحج» الكلامُ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا ولباسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجل المسجد فقال: اللهم ارحم عُزْبَتِي، وَأَنْسَ وَحَدَتِي، وَيَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا. فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً فلأنا أسعدُ بذلك منك، سمعتُ النبي ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: فيجيء هذا السابقُ فيدخل الجنةَ بغير حساب، وأمَّا المقتصدُ فيحاسبُ حساباً يسيراً، وأمَّا الظالمُ لنفسه فيحبسُ في المقامِ ويؤنخُ ويقرَعُ، ثم يدخل الجنةَ، فهم الذين قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٤).

وفي لفظٍ آخر: «وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ يُحْبَسُونَ فِي طُولِ الْمَحْشَرِ،

(١) في المسألة السابقة، والقراءة في الكشاف ٣/٣٠٩، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٤٠ لزر ابن حبيش.

(٢) الكشاف ٣/٣٠٩. والقراءة في القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الجحدري.

(٣) السبعة ص ٥٣٤، والتيسير ص ١٨٢.

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٦٩٧)، والطبري ١٩/٣٧٥، والبغوي ٣/٥٧١، من طريق الأعمش عن أبي ثابت. وأبو ثابت - أو ثابت كما وقع على الشك عند أحمد - غير منسوب، وفي إسناد الحديث اختلاف على الأعمش.

ثم هم الذين يتلافاهم^(١) الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾^(٢).

وقيل: هو الذي يؤخذ منه في مقامه، يعني يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] يعني: في الدنيا. قال الثعلبي: وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾، ولقوله: ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، والكافر والمنافق لم يُصْطَفُوا.

قلت: وهذا هو الصحيح، وقد قال ﷺ: «ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر»^(٣). فأخبر أن المنافق يقرؤه، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار، وكثير من الكفار اليهود^(٤) والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا. وقال مالك: قد يقرأ القرآن من لا خير فيه^(٥). والنصب: التعب. واللغوب: الإعياء.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمُرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ الْأَنْذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ مثل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ مثل: ﴿كَلِمًا نَصَبَتْ لِمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ﴾

(١) في (م): يتلقاهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٢٧)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أخرجه البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧)، وسلف ١٣/١.

(٤) في (م): وكثير من الكفار واليهود، وفي (ظ): وكثير من اليهود.

(٥) سلف ١٦٦/٢.

بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿النساء: ٥٦﴾. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أي: كافرٍ بالله ورسوله.

وقرأ الحسن: «فيموتون» بالنون، ولا يكون للنفي حينئذ جواب، ويكون «فيموتون» عطفاً على «يُقَضَى»، تقديره: لا يُقَضَى عليهم ولا يموتون^(١)، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قال الكسائي: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ﴾ بالنون في المصحف لأنه رأسُ آية، و﴿لَا يُقَضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [بغير نون] لأنه ليس رأس آية. ويجوز في كل واحدٍ منهما ما جاز في صاحبه^(٢).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصُّرَاخُ: الصوتُ العالي، والصارخُ: المستغيثُ، والمُصْرِخُ: المُغِيثُ؛ قال:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرَعٌ كان الصراخُ له قرعَ الظنابِ^(٣)

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ جَهَنَّمَ، وَرُدَّنَا إِلَى الدُّنْيَا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ قال ابن عباس: نَقُلُ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ^(٤). وهو معنى^(٥) قولهم: ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: من الشرك، أي: نؤمنُ بِدَلِّ الكفر، ونطبعُ بِدَلِّ المعصية، ونمثلُ أمرَ الرُّسُل.

﴿أَوَّلَ نَعْمَتِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائهم، أي: فيقالُ لهم، فالقولُ مضمَّر. وترجم البخاري: بَابُ مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعَمْرِ،

(١) المحتسب ٢/٢٠٢، قال ابن جني: والمفعول محذوف، أي: لا يقضى عليهم الموت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص ١٢٥، والصحاح (ظنب). قال الجوهري: الظنَّبُوبُ: العظم اليابس من قدم الساق، عني به سرعة الإجابة، وجعل قرع السوط على ساق الخف في زجر الفرس قرعاً للظنَّبُوب. وقال الأصمعي في شرح الديوان: يقال: ضَرَبَ لهذا الأمر ظنَّبُوبه: إذا هو جَدَّ فيه.

(٤) الوسيط ٣/٥٠٦.

(٥) في (د) و (ظ): ومعنى، بدل: وهو معنى.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني الشيب. حدَّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال: حدَّثنا عمر بنُ علي قال: حدَّثنا مَعْنُ بنُ محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أَعَدَرَ اللهُ إلى امرئٍ آخرَ أَجَلَهُ حتى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»^(١).

قال الحَظَّابِيُّ^(٢): أَعَدَرَ إِلَيْهِ، أَي: بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْعُدْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: قَدْ أَعَدَرَ مَنْ أَنْذَرَ، أَي: أَقَامَ عُدْرَ نَفْسِهِ فِي تَقْدِيمِ نِذَارَتِهِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ سِتِّينَ سَنَةً لَمْ يَبْقَ لَهُ عُدْرٌ؛ لِأَنَّ السِّتِينَ قَرِيبٌ مِنْ مُعْتَرِكِ الْمَنَايَا، وَهُوَ سُنُّ الْإِنَابَةِ وَالْخُشُوعِ، وَتَرْقُبِ الْمَنِيَّةِ وَلِقَاءِ اللهِ تَعَالَى، فَفِيهِ إِعْذَارٌ بَعْدَ إِعْذَارِ^(٣)، الْأَوَّلِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُوتَانِ^(٤) فِي الْأَرْبَعِينَ وَالسِّتِينَ^(٥). قَالَ عَلِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: إِنَّهُ سِتُّونَ سَنَةً^(٦). وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي مَوْعِظَتِهِ: «وَلَقَدْ أَبْلَغَ فِي الْإِعْذَارِ مَنْ تَقَدَّمَ فِي الْإِنذَارِ، وَإِنَّهُ لِيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى أَبْنَاءَ السِّتِينَ: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾»^(٧).

(١) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، وقوله: يعني الشيب، هو في بعض روايات البخاري دون بعض كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٣٩/١١.

(٢) بنحوه في غريب الحديث له ٣٥٩/٢.

(٣) في (د): إنذار، وفي (ظ): إنذاره.

(٤) أي: الموت الكثير الوقوع. معجم متن اللغة (موت). وقع في (ز) و(ظ): والمرتان، بدل: والموتان وينظر التعليق التالي.

(٥) سلف نحو هذا الكلام ٣٢٢/٩، وفيه: ففيه إعدار بعد إعدار، الأول بالنبي ﷺ، والثاني بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين.

(٦) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق ١٣٨/٢، والطبري ٣٨٥/١٩. وأخرجه عن علي ﷺ الطبري ٣٨٦/١٩. أما أبو هريرة ﷺ فقد سلف الحديث عنه مرفوعاً: «أعذر الله إلى امرئ...» وقد أخرجه بنحوه الرامهرمزي في الأمثال ص ٩٨ وزاد بعده: يريد: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وروي نحوه عن ابن عباس على ما يأتي.

وذكر الترمذي الحكيم من حديث عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نُودِيَ أَبْنَاءَ السَّيِّئِينَ، وَهُوَ الْعَمْرُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ: ﴿أُولَئِكَ نَعَمَّرَكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾»^(١).

وعن ابن عباس أيضاً: أنه أربعون سنة. وعن الحسن البصريّ ومسروقٍ مثله^(٢). ولهذا القول أيضاً وجه، وهو صحيح؛ والحجة له قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الآية [الأحقاف: ١٥]. ففي الأربعين تنأهي العقل، وما قبل ذلك وما بعده مُتَقَصِّصٌ عنه، والله أعلم.

وقال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت. وقد مضى هذا المعنى في سورة الأعراف^(٣).

وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أعمارُ أمتي ما بين السَّيِّئِينَ إلى السَّعِيدِينَ، وَأَقْلَهُمْ مَن يُجَاوِزُ ذَلِكَ»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، وقرئ: «وجاءتكم النذير»^(٥) واختلف فيه؛ فقيل: القرآن. وقيل: الرسول؛ قاله زيد بن عليّ وابن زيد^(٦). وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين بن الفضل والقرء والطبري: هو الشيب^(٧).

(١) نواذر الأصول ص ١٧٧، وأخرجه الطبري ٣٨٥/١٩، والطبراني في الكبير (١١٤١٥)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل، قال الحافظ في التريب: متروك.

(٢) أخرجه الطبري ٣٨٤/١٩ عن ابن عباس ومسروق. وذكره عن الحسن البغوي ٥٧٣/٣.

(٣) ٣٢٢/٩.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٣٦)، وسلف ٢١٨/٥.

(٥) الكشف ٣١١/٣.

(٦) أخرجه الطبري ٣٨٧/١٩ عن ابن زيد.

(٧) أخرجه عن ابن عباس البيهقي ٣٧٠/٣، وسلف ٣٢٢/٩، وذكره عن عكرمة وسفيان ووكيع البغويّ =

وقيل: النذيرُ الحُمَى. وقيل: موتُ الأهلِ والأقارب. وقيل: كمالُ العقل^(١).
والنذيرُ بمعنى الإنذار.

قلت: فالشيبُ والحُمَى وموتُ الأهلِ كلُّهُ إنذارٌ بالموت؛ قال ﷺ: «الحُمَى رائدُ الموت»^(٢). قال الأزهريُّ: معناه: أنَّ الحُمَى رسولُ الموت^(٣)، أي: كأنَّها تُسْعِرُ بقدمه وتُنذِرُ بمجيئه. والشيبُ نذيرٌ أيضاً؛ لأنه يأتي في سنِّ الاكتهال، وهو علامةٌ لمفارقةِ سنِّ الصِّبَا الذي هو سنُّ اللُّهُو واللَّعِب، قال:

رَأَيْتُ الشَّيْبَ مِنْ نُذْرِ الْمَنَايَا لَصَاحِبِهِ وَحَسْبُكَ مِنْ نَذِيرِ
وقال آخرُ:

فَقُلْتُ لَهَا الْمَشِيبُ نَذِيرٌ عَمْرِي وَلَسْتُ مُسَوِّدًا وَجْهَ النَّذِيرِ^(٤)
وأما موتُ الأهلِ والأقاربِ والأصحابِ والإخوان؛ فإنذارٌ بالرحيلِ في كلِّ وقتٍ
وأوان، وحينٍ وزمان، قال:

وَأَرَاكَ تَحْمَلُهُمْ وَلَسْتَ تَرُدُّهُمْ فَكَأَنَّنِي بِكَ قَدْ حُمِلْتَ فَلَمْ تُرَدَّ
وقال آخرُ:

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشُرُ الكَفَنَا ونحن في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بنا^(٥)

= ٥٧٣/٣. وذكره عن الفراء والطبري الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٦، وسلف في ترجمة عند البخاري قريباً.

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٦.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/١٦٤، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٥/٩٤-٩٥ من حديث عبد الرحمن بن المرقع رضي الله عنه. قال الهيثمي: فيه المحبر بن هارون، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. ١ هـ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٠) عن الحسن مرسلًا.

(٣) تهذيب اللغة ١٤/١٦٣.

(٤) نسبة المبرِّد في الكامل ٢/٧٠٣ للعتبي، وهو بلا نسبة في عيون الأخبار ٤/٥١، والمعقد الفريد ٣/٥١.

(٥) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زمنين، كما في جذوة المقتبس ص ٥٧، والصلة لابن بشكوال ص ٤٨٤.

وأما كمال العقل فيه تُعرفُ حقائقُ الأمور، ويُفصلُ بين الحسناتِ والسيئاتِ،
فالعاقلُ يعملُ لآخرتهِ ويرغبُ فيما عندَ ربِّه، فهو نذير.

وأما محمدٌ ﷺ فبعثه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قَطْعاً لحججهم؛ قال الله تعالى:
﴿لَئِنَّمَا يَكُونِ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى
نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ يريدُ عذابَ جهنم؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتعظتم^(١).
﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: مانع من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ عَلِيمُ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ ﴿٢٨﴾

تقدّم معناه في غير موضع. والمعنى: عَلِمَ أنه لو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا
صالحاً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. و﴿عَلِمَ﴾ إذا كان بغير
تنوين صلح أن يكون للماضي والمستقبل [والحال]، وإذا كان منوناً لم يجز أن يكون
للماضي^(٢).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال قتادة: خَلَفًا بعد خَلَفِ،
وَقَرْنَا بعد قرن^(٣). والخَلَفُ هو التالي للمتقدّم، ولذلك قيل لأبي بكر: يا خليفة الله،
فقال: لستُ بخليفة الله، ولكنني خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راضٍ بذلك^(٤).

(١) في (ظ): ما آمتم ولا أطعتم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٧، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٧، والطبري ١٩/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٤) أخرجه أحمد (٥٩) من طريق ابن أبي مليكة قال: قيل: لأبي بكر... وابن أبي مليكة لم يدرك
أبا بكر ﷺ.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: جزاء كُفْرِهِ، وهو العقابُ والعذاب. ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بغضاً وغضباً. ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً وضللاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مَنَّهُ بَلْ إِنْ يَكِيدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ «شركاءكم» منصوبٌ بالرؤية، ولا يجوزُ رَفْعُهُ، وقد يجوزُ الرَفْعُ عند سيبويه في قولهم: قد علمتُ زيداً أبو من هو؟ لأنَّ زيداً في المعنى مُستفهمٌ عنه. ولو قلت: أرايتُ زيداً أبو من هو؟ لم يجزِ الرَفْعُ. والفرقُ بينهما أنَّ معنى هذا: أخبرني عنه، وكذا معنى هذا: أخبروني عن شركائكم الذين تَدْعُونَ من دون الله، أعبدتُموهم لأنَّ لهم شِرْكَةً في خَلْقِ السماوات، أم خَلَقُوا من الأرض شيئاً؟ ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ أي: أم عندهم كتابٌ أنزلناه إليهم بالشِرْكَة. وكان في هذا رَدٌّ على مَنْ عَبَدَ غيرَ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّهم لا يجدون في كتابٍ من الكتب أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمر أن يُعْبَدَ غيره^(١).

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مَنَّهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بالتوحيد، وجمَعَ الباقون^(٢). والمعنيان مُتقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى؛ لأنَّه لا يخلو مَنْ قرأه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ من أن يكون خالف السوادَ الأعظم، أو يكون جاء به على لغةٍ من قال: جاءني طلحت^(٣)، فوقف بالتاء، وهذه لغةٌ شاذةٌ قليلة؛

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) السبعة ص ٥٣٥، والتيسير ص ١٨٢.

(٣) في (د) و (ظ): طلحة. وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ والكلام منه.

قاله النحاس^(١).

وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمعُ أَوْلَى لموافقته الخطَّ، لأنَّها في مصحفِ عثمانَ: «بَيِّنَاتٍ» بِالْأَلْفِ وَالتَّاءِ.

﴿بَلْ إِنْ يَعِدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: أباطيلَ تغرُّ، وهو قولُ السادةِ للسُّفلة: إِنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ تَنْفَعُكُمْ وَتَقْرِبُكُمْ. وقيل: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُّ الْمُشْرِكِينَ ذَلِكَ. وقيل: وَعَدَّهُمْ بِأَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ عَلَيْهِمْ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَيَّنَّ أَنَّ خَالِقَهُمَا وَمُمْسِكُهُمَا هُوَ اللَّهُ، فَلَا يَوْجِدُ حَادِثٌ إِلَّا بِإِيجَادِهِ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا بِبِقَائِهِ. و«أَنَّ» فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِمَعْنَى: كِرَاهَاةَ أَنْ تَزُولَا، أَوْ لَثَلًا تَزُولَا، أَوْ يُحْمَلُ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ يَمْنَعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْ^(٢) أَنْ تَزُولَا، فَلَا حَاجَةَ عَلَى هَذَا إِلَى إِضْمَارِ، وَهَذَا قَوْلُ الزَّجَّاجِ^(٣).

﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال الفراء^(٤): أي: ولو زالتا ما أمسكهما من أحد، و«إِنْ» بمعنى ما. قال: وهو مثلُ قوله: ﴿وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]. وقيل: المرادُ زوالُهُما يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٥).

(١) في إعراب القرآن ٣/٣٧٦.

(٢) قوله: من، من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٤/٢٧٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٦، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/٢٧٣.

(٤) في معاني القرآن ٢/٣٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٧٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/٢٧٣-٢٧٤.

وعن إبراهيم قال: دخل رجلٌ من أصحاب ابن مسعودٍ إلى كعب الأخبارِ يتعلمُ منه العلمَ، فلمَّا رجع قال له ابن مسعود: ما الذي أصبتَ من كعب؟ قال: سمعتُ كعباً يقول: إنَّ السماءَ تدورُ على قُطْبٍ مثلِ قُطْبِ الرَّحَى، في عمودٍ على منكبِ مَلَكٍ، فقال له عبد الله: وددتُ أنك انقلبتَ براحتك ورَحْلِها، كَذَبَ كعبٌ، ما ترك يهوديته! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ إنَّ السماواتِ لا تدورُ، ولو كانت تدورُ لكانت قد زالت^(١).

وعن ابن عباس نحوه، وأنه قال لرجلٍ مُقْبِلٍ من الشام: مَنْ لَقِيتَ به؟ قال: كعباً. قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إنَّ السماواتِ على منكبِ مَلَكٍ. قال: كَذَبَ كعب، أما ترك يهوديته بعد! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(٢).

والسماواتُ سبعٌ والأرضون سبعٌ، ولكن لما ذكّرهما أجراهما مجرى شيتين، فعادت الكنايةُ إليهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لأنَّ المعنى فيما ذكره بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الله يمسكُ السماواتِ والأرضَ أن تزولا من كُفْرِ الكافرين، وقولهم: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. قال الكلبيُّ: لما قالت اليهودُ: عزيزُ ابنُ اللهِ، وقالت النصرانيُّ المسيحُ ابنُ اللهِ، كادت السماواتُ والأرضُ أن تزولا عن أمكتهما، فمنعهما اللهُ، وأنزل هذه الآية فيه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٨٩-٩٠].

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٣٩٢/١٩، وأخرجه أيضاً ٣٩١/١٩ من طريق أبي وائل عن ابن مسعود.

(٢) الكشاف ٣/٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن
إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ
السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَن نَّجِدَ
لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هم قريش؛ أقسموا قبل
أن يبعث الله رسوله محمداً ﷺ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فلعنوا من
كذب نبيهم منهم، وأقسموا بالله جلَّ اسمه: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نبي ﴿لَيَكُونُنَّ
أَهْدَىٰ مِن إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ يعني ممن كذب الرسل من أهل الكتاب^(١).

وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل،
فلما جاءهم ما تمنّوه - وهو النذير من أنفسهم - نفروا عنه ولم يؤمنوا به.

﴿أَسْتَكْبَارًا﴾ أي: عتوا عن الإيمان ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: مكر العمل السيئ، وهو
الكفر وخدع الضعفاء، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم. وأنت «من إحدى الأمم»
لتأنيث أمة؛ قاله الأخفش^(٢).

وقرأ حمزة والأعمش: ﴿ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ﴾^(٣) فحذف
الإعراب من الأول وأثبت في الثاني. قال الزجاج: وهو لحن^(٤)، وإنما صار لحناً لأنه
حذف الإعراب منه. وزعم المبرّد أنه لا يجوز في كلام ولا في شعر؛ لأن حركات
الإعراب لا يجوز حذفها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعظم بعض النحويين
أن يكون الأعمش على جلالته ومحلّه يقرأ بهذا، وقال: إنما كان يقف عليه، فغلط

(١) النكت والعيون ٤/٤٧٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/٦٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٧٧ .

(٣) السبعة ص ٥٣٥-٥٣٦ ، والتيسير ص ١٨٢ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/٢٧٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٧٧ ، وما
سيأتي هو من كلام النحاس.

مَنْ أَدَّى^(١) عنه، قال: والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثاني لَمَّا لم يكن تمام الكلام أُعْرِبَ باتِّفاق، والحركة في الثاني أَثْقَلُ منها في الأوَّل لأنها ضمة بين كسرتين. وقد احتجَّ بعض النحويين لحمزة في هذا بقول سيبويه، وأنه أنشد هو وغيره:

إِذَا اعْوَجَّجْنَ قَلْتُ صَاحِبِ قَوْمٍ^(٢)

وقال الآخر:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ^(٣)
وهذا لا حجة فيه؛ لأنَّ سيبويه لم يُجزِّه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على الشذوذ ولضرورة الشعر. وقد خولف فيه، وزعم الزجاج أنَّ أبا العباس أنشده:

إِذَا اعْوَجَّجْنَ قَلْتُ صَاحِ قَوْمٍ

وأنه أنشد:

فَالْيَوْمَ فَاشْرَبَ^(٤) غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ

ذَكَرَ جَمِيعَهُ النَّحَّاسُ^(٥).

الزَّمخَشَرِيُّ: وقرأ حمزة: «ومكر السيئ» بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات [مع الياء والهمزة]، ولعله اختلَسَ فظُنَّ سكوناً، أو وَقَفَ وَقْفَةً خفيفةً ثم

(١) في (د): ادعى.

(٢) الكتاب ٢٠٣/٤، وسلف ١١٢/٢، وعجزه: بالذَّوِّ أمثال السَّفِينِ العُومِ.

(٣) الكتاب ٢٠٤/٤، والبيت لامرئ القيس، وسلف ١١٢/٢، وجاء في رواية الأصمعي للديوان ص ١٢٢: فاليوم أسقى. وفي رواية الطوسي ص ٢٥٨: فاليوم فاشرب، وستاتي.

(٤) في النسخ: اشرب، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٢٧٥/٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٨/٣ والكلام منه، قال النحاس: فاليوم فاشرب بالفاء. اهـ. وهذا موافق لرواية الطوسي للديوان ص ٢٥٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣٧٧-٣٧٨/٣، ووقع في (د) و (م) قبل قوله ذكر جميعه النحاس: بوصل الألف على الأمر.

ابتدأ: «ولا يحيق». وقرأ ابن مسعود: «ومكراً سيئاً»^(١).

وقال المهدي: «ومن سَكَنَ الهمزة من قوله: «ومكر السيئ» فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات»^(٢) والياءات، كما قال:

فاليومَ أشربَ غيرَ مستحقبِ

قال القشيري: وقرأ حمزة: «ومكر السيئ» بسكون الهمزة، وخطأه أقوام. وقال قوم: لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام، فغلط الراوي ورَوَى ذلك عنه في الإدراج.

وقد سبق الكلام في أمثال هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبي ﷺ قرأه فلا بد من جوازه، ولا يجوز أن يقال: إنه لحن^(٣). ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحاً.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا تنزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك.

وقيل: هذا إشارة إلى قتلهم بيد.

وقال الشاعر:

وقد دفعوا المنية فاستقلت ذراعاً بعد ما كانت تحيق^(٤)

(١) الكشاف ٣/٣١٢، وما سلف بين حاصرتين منه، وقرأه ابن مسعود في المحتسب ٢/٢٠٢.

(٢) في (ظ): الحركات.

(٣) ينظر ص ١٤٠ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٤/٤٧٩، والبيت للمفضل الكوري كما في الأصمعيات ص ٢٠٠، والمعاني الكبير ٢/٩٤٥، ومنتهى الطلب ٨/٢٣٩، ونسبه الأخفش في الاختيارين ص ٢٤٥ لعامر بن معشر. وذكر السيوطي في شرح شواهد المغني ١/١٧١ أن المفضل هو عارم بن معشر، وإنما سمي مفضلاً لهذه القصيدة. ووقع في المصادر: وهم، بدل: وقد. ودراكاً: بدل: ذراعاً. وفي بعضها: رفعوا، بدل: دفعوا. وكادت، بدل: كانت. قال الأخفش: المنية: الحرب، ويروى: رفعوا، بالراء، أي: رفعوا الراية، وتحتها الموت. دراكاً، أي: مُدَارَكَة.

أي: تنزل، وهذا قولٌ قَطْرُب. وقال الكلبي: «يحيق» بمعنى يُحيط^(١). والحوق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا، أي: أحاط به.

وعن ابن عباس أن كعباً قال له: إني أجدُ في التوراة: مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ حُفْرَةً وَقَعَ فِيهَا. فقال ابن عباس: فَإِنِّي أَوْجِدُكَ فِي الْقُرْآنِ ذَلِكَ. قال: وأين؟ قال: فاقراً: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢). وفي أمثال العرب: مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ جُبًّا وَقَعَ فِيهِ مُنْكَبًا^(٣).

وروى الزُّهريُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَمْكُرْ وَلَا تُعِنْ مَآكِرًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، وَلَا تَبِعْ وَلَا تُعِنْ بَآغِيًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾» [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]^(٤). وقال بعضُ الحكماء:

يا أيها الظالمُ في فعلِهِ
إلى متى أنت وحتّى متى
والظُّلمُ مردودٌ على مَنْ ظَلَمَ
تُحصي المصِيباتِ وتُنسى النِّعمُ^(٥)

وفي الحديث: «المكرُ والخديعةُ في النار»^(٦). فقوله: «في النار» يعني: في

(١) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٩.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/٣١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٤٣.

(٣) المستقصى ٢/٣٥٤، والكشاف ٣/٣١٢.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥)، وفيه: وَلَا تَبِعْ وَلَا تُعِنْ بَآغِيًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، وَلَا تَنْكُتْ وَلَا تُعِنْ نَاكِثًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾. وهو مرسل.

(٥) البيتان لمحمود الوراق كما في الشعب للبيهقي (٤٦٣٠)، والتدوين في أخبار قزوين ١/٥٠٠، ووقع في (م): المصائب، بدل: المصيبات. وفي المصادر: تشكو، بدل: تحصي.

(٦) أخرجه ابن حبان (٥٦٧) والطبراني في الكبير (١٠٢٣٤) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الحاكم ٤/٦٠٧ من حديث أنس ﷺ. وأخرجه ابن عدي ٤/٥٨٤ من حديث قيس بن سعد ﷺ. وأخرجه البزار (١٠٣ - كشف) وابن عدي ٤/١٦٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٦٥) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا، وزاد: والخيانة.

الآخرة تُدخِلُ أصحابها في النار؛ لأنّها من أخلاق الكفّار لا من أخلاق المؤمنين الأَخيار؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: «وليس من أخلاق المؤمن المكرُّ والخديعةُ والخيانة»^(١). وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلُّق بهذه الأخلاق الذميمة، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنّما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفّار الأولين. ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: أجرى الله العذاب على الكفار، وجعل^(٢) ذلك سنةً فيهم، فهو يعذبُ بمثله من استحقَّه، لا يقدر أحدٌ أن يبدل ذلك، ولا أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره.

والسُّنة: الطريقة، والجمعُ سُنن. وقد مضى في «آل عمران»^(٣). وأضافها إلى الله عزَّ وجلَّ، وقال في موضعٍ آخر: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧] فأضاف إلى القوم؛ لتعلُّق الأمر بالجانبين، وهو كالأجل، تارةً يضاف إلى الله، وتارةً إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾

بيّن السُّنة التي ذكَّرها، أي: أو لم يَروا إلى ما أنزلنا بعادٍ وثمودَ ومَدينَ وأمثالهم لما كذبوا الرسل، فيتدبَّروا ذلك بنظرهم^(٤) إلى مساكنهم ودورهم، وبما سمعوا على

(١) أخرجه بهذه الزيادة ابن وهب في الجامع ص ٧٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلًا، ولم ترد هذه الزيادة في الأحاديث التي ذكرناها في التعليق السابق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): ويجعل، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٨، والكلام منه.

(٣) ٣٣٢/٥.

(٤) في (د): فتدبروا ذلك بنظركم، وفي (خ) و (م): فتدبروا ذلك بنظرهم.

التواتر بما حلَّ بهم، أفليس فيه عبرة وبيان لهم، ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى، دليله قوله: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إذا أراد إنزال عذابٍ بقومٍ لم يُعجزه ذلك. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا﴾ (٤٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميعَ الحيوانِ ممَّا دَبَّ وَدَرَج. قال قتادة: وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام. وقال الكلبي: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ يريد الجنَّ والإنسَ دونَ غيرهما؛ لأنَّهما مُكَلَّفان بالعقل^(١).

وقال ابن جريج^(٢) والأخفش والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناسَ وحدهم دونَ غيرهم.

قلت: والأوَّلُ أَظْهَرُ، لأنَّه عن صحابيِّ كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَلُ أن يُعذَّبَ في جُحره بذنْبِ ابنِ آدم^(٣). وقال يحيى بن أبي كثير: أمر رجلٌ بالمعروف ونهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإنَّ الظالم لا يضرُّ إلا نفسه. فقال أبو هريرة: كذبت؟ والله الذي لا إله إلا هو، ثم قال: والذي نفسي بيده إنَّ الحُبَارَى

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٩، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/٣٩٧.

(٢) ذكره عن ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٩، ووقع في (م) بدلاً منه: ابن جريج، وهو تصحيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٣٠١، والحاكم ٢/٤٢٨ وصححه. والجُعَلُ: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. المعجم الوسيط (جعل).

لَتَمَوْتُ هَزْلاً فِي وَكْرِهَا بَظَلَمِ الظَّالِمِ^(١).

وقال الثُّمَالِيُّ ويحيى بنُ سلام في هذه الآية: يحبسُ الله المطرَ، فيهلك كلَّ

شيءٍ^(٢).

وقد مضى في «البقرة»^(٣) نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير ﴿وَيَلْمُهُمُ

الْلَّعِينُونَ﴾ [الآية: ١٥٩]: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْبُ بذنوبِ علماءِ السوءِ

الكاتبين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديثَ البراءِ بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في

قوله تعالى: ﴿وَيَلْمُهُمُ الْلَّعِينُونَ﴾ قال: «دوابُّ الأرضِ».

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال مقاتل: الأجلُ المسمَّى هو ما وَعَدَهُم في

اللُّوحِ المحفوظ. وقال يحيى: هو يومُ القيامة^(٤). ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ أي:

بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ مِنْهُمْ ﴿بَصِيرًا﴾.

ولا يجوزُ أن يكون العاملُ في «إذا» «بصيراً» كما لا يجوز: اليومُ إنَّ زِيداً خَارِجٌ.

ولكن العامل فيها «جاء»؛ لَشَبَّهَهَا بحروفِ المُجَازَاةِ^(٥)، والأسماءُ التي يُجَازَى بها

يَعْمَلُ فيها ما بَعْدَهَا. وسيبويه لا يرى المُجَازَاةَ بـ«إذا» إلا في الشعر، كما قال:

إِذَا قُضِرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَضْلُهَا خُطَانَا إِلَىٰ أَعْدَائِنَا فَتُضَارِبِ^(٦)

ختمت سورة «فاطر» والحمد لله

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٦٠/١٤، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦٩). والجبّار: طائر طويل العنق

رمادي اللون على شكل الإوزة، الذكر والأُنثى والجمع فيه سواء. المعجم الوسيط (حبر).

(٢) ذكره بنحوه عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٤٧٩/٤. والثُّمَالِيُّ: هو أبو حمزة ثابت

ابن أبي صفية، وسلف ذكره ٤٨/٥.

(٣) ٤٨٣/٢.

(٤) النكت والعيون ٤٨٠/٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣٧٩/٣.

(٦) البيت لقيس بن الخطيم، وهو في ديوانه ص ٨٨، والكتاب ٦٠/٣، وسلف ٣٠٥/١.